إنتحار ملكة

كليوباترا المفترى عليها

تأليف

مجموعة كتاب

الكتاب: إنتحار ملكة.. كليوباترا المفترى عليها

الكاتب: مجموعة كتاب

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

إنتحار ملكة.. كليوباترا المفترى عليها/ مجموعة كتاب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٠٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٢٣ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٣٦٨ / ٢٠٢٠

إنتحار ملكة





مقدمة

صورة كليوباترا.. الحقيقة والتشويه

لم تتعرض سيرة ملكة للتشويه والتلاعب والتحقير كما تعرضت سيرة الملكة كليوباترا، فالصورة النمطية الشائعة عنها هي صورة المرأة اللعوب المتهتكة، فتصبح وكأنتها غانية وليست ملكة، وقد استقرت تلك الصورة في الأذهان حتى أصبح الناس يتعاملون معها وكأنها حقيقة رسختها السينما ووسائل الإعلام. فإن ذكرت كليوباترا تقفز إلى الذهن صورة الثعبان الذي بلدغها لدغة الموت، وصورة أنطونيو الحبيب، وأوكتافيوس الغريم. فما نصيب تلك الصورة من الصحة؟

يهدف هذا الكتاب إلى الجواب على هذا السؤال، إذ يحتوى بين دفتيه على عدد من الرؤى المختلفة والمتباينة حول كليوباترا، لكتاب من الشرق والغرب، ولكتاب محدثين وقدامى، وهذا التنوع مقصود، فاختلاف الرؤى يبين كم كانت كليوباترا مثيرة للجدل، ويضع أمام القارىء التصورات والروايات المختلفة حولها، ليعمل عقله ويقرأ ويقارن، وبالتالي يصل إلى الحقيقة التي يكتشفها بنفسه نتيجة تجاور الرؤى.

وُلِدت كليوباترا عام ٦٩ قبل الميلاد، عاشت وماتت خلالها ضمن مدينة الإسكندريّة، كانت من أفراد العائلة الملكيّة المقدونيّة المُنحدرة من اليونان والتي حكمت مصر لأكثر من ثلاثة قرون مُتتالية.

وقد عُرفت كليوباترا بثقافتها الرفيعة، إذ أجادت التحدث بسبع لُغات، كما عُرفت أيضاً بحزمها وحماستها الزائدة. وعلى الرغم من عدم وجود أي حوادث انتحار ضمن عائلتها الملكيّة والتي تُعرف بسلالة بطليموس فقد كان هناك العديد من حوادث القتل والاغتيال كما هو معروف عند جميع السلالات الأخرى.

فهل تم اغتيالها أم أنها انتحرت؟ وإذا افترضنا أنها انتحرت، فهل من الممكن أن تكون أول بطلمي يقوم بالانتحار؟

وَرِثت كليوباترا العرش وهي في الثامنة عشر من عمرها، وتزوجت من أخيها الذي يبلغ من العمر عشر سنوات فقط والمعروف باسم بطليموس الثالث عشر، لكنها أرادت الانفراد بالسلطة، فتمرد بطليموس عليها فدبرت لاغتياله، ويُروى إنها كانت عشيقة يوليوس قيصر وانجبت منه طفلاً، لكن بعد اغتيال يوليوس عام ٤٤ قبل الميلاد انحازت إلى مارك انطونيو الذي دخل في حرب مع الوريث القانوني للحكم وهو أوكتافيوس ابن يوليوس قيصر ووريثه الشرعي. فنشبت معركة أكتيوم التي انتصر فيها أوكتافيوس. وبعدها انتحر انطونيو ثم لحقت كليوباترا به. وأصبحت مصر ولاية رومانيّة وأصبح هو إمبراطورها الأول كما قام بتغير أسمه إلى أوغسطس.

إعادة التفكير بالقصة

يقع ضريح كليوباترا قرب قصر أوكتافيوس حيث كان يعيش في الإسكندريّة، ومن المعروف أن كليوباترا كانت في قبرها عندما كتبت

وصيتها قبل أن تُقبل على الانتحار والتي اعطتها للحارس الذي سلّمها بدوره لأوكتافيوس، وكما هو مُفترض فإنها بعد ذلك قامت بوضع

حقيقة لا يبدو هذا الأمر معقولا، فالحارس الذي تم تسلّيمه الوصيّة والذي لم يكن مُدركاً ولا مُطّلعاً على مُحتواها كان عليه فقط أن يمشي لبضعة دقائق مُتجاوزاً مئات من الأمتار لأجل الوصول للملك وتسليمه للوصيّة، ثم عدة دقائق أخرى لكي يعود إلى الملكة، فهل الوقت كافٍ لأن تنتحر خلاله؟

هناك روايات أكثر معقولية تقول بأن أوكتافيوس هو من قتل الملكة في إطار سعيه للسيطرة على جميع الإمبراطوريّة الرومانيّة، إذ أنه كان حاكماً فقط للجزء الغربي من الإمبراطوريّة بينما كان مارك أنطونيو مُسيطراً على الجزء الشرقي وعندما أراد أوكتافيوس بسط نفوذه على كامل الإمبراطوريّة قتل كليوباترا وأعلن الحرب، مما يشير إلى أن انتحار كليوباترا ما هو إلا حيلة دبرها أوكتافيوس لإخفاء فعلته، كما أن كليوباترا كانت من الفراعنة الذين يؤمنون بالآلهة إيزيس، وكانت تعتقد بتناسخ الأرواح معها، فمن ضمن أحد النقوش الجداريّة المصريّة وجدوا صورة لإيزيس – والتي كانت تُرسم على شكل أفعى – بجانب الملكة كليوباترا... ومن هنا أتت قصة الانتحار بالأفعى، فالأمر لم يكن انتحاراً بأفعى وإنما تناسخ أرواح مع الآلهة إيزيس فقط.

لهذا يحذر الفرنسي هنري بوردو قائلا: "عندما نريد أن نتناول شخصية كليوباترا يتعين علينا أن نأخذ حذرنا من المؤرخين الرومان، فإن

المنتصر يكتب التاريخ دائما على هواه". لكن كثيرا لم يحذروا، فاعتمدوا على ما رواه المؤرخ الإغريقي « بلو تارك » وتناقل عنه كتاب الغرب ما كتبه، فكانت مصدرا لأعمالهم التي رسخت الصورة النمطية لكليوباترا التي استطاعت أن تغزو قلب عاهل بعد آخر من أباطرة الرومان، يوم أن كان للإمبراطورية الرومانية شأنها في السيطرة على العالم، وقد فعلت ذلك معتمدة على ذكائها الخارق، وفعلته بأسلوب من التحدي والإصرار على أن تكون دائما منتصرة، وحتى عندما خانها الحظ بانقلاب ميزان السياسة وسقوط انطونيو الذي كانت حالفته وتزوجته، فأنها أبت ألا أن تخرج من هذا العالم منتصرة ففضلت الانتحار.

اختلاف الرؤى

هكذا تميل أغلب الروايات الغربية إلى إعادة إنتاج ما كتبه بلوتارك، أما الروايات الشرقية، وتحديدا المصرية، فهي تقدم صورة مختلفة، وأساسها يرجع إلى عالم المصريات الشهير الدكتور سليم حسن، وخلاصة رؤيته تتمثل في عنوان الفصل الخاص به في هذا الكتاب وهو "كليوباترا من أعف نساء عصرها"، ويؤكد أنها عاشت مع كل من يوليوس ؤقيصر ثم مارك أنطونيو عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها.

بعد هذا الإقرار يتسائل: كيف حدث أن سميت باسم المومس الملكية والخليعة الشرقية التي عاشت عيشة الفسق والفجور؟ في سبيل الجواب على هذا التساؤل يفند كل الاتهامات الموجهة لكليوباترا،

ويحلل كل ما ألصق بصورتها من معايب ومثالب، ويميل إلى نفي أغلبها، ويرد ذلك كله إلى الصورة التي رسمها الغالب للمغلوب، فالمنتصر يحكي من وجهة نظره، ويتبعه الآخرون فتترسخ الصورة التي غالبا ما تكون غير صحيحة بل ومناقضة للحقيقة. أما أستاذ اللغة اليونانية وآدابها بجامعة القاهرة، الدكتور أحمد عتمان، فكتب تحت عنوان "مؤرخ يهودي يشوه سمعة كليوباترا"، ويبدأه بالتحفظ على مقولة أن التاريخ يحفظ الحقائق دون سواها، فهذا القول وإن صح في مجمله يغفل حقيقة أخرى ملموسة وهي أن التاريخ يحفظ أيضا بعض الأكاذيب.

والصورة التاريخية التقليدية الكليوباترا السابعة ملكة مصر وأخر الملوك البطالمة هي أكذوبة كبرى. ولقد توارث المؤرخون والأدباء هذه الصورة جيلا بعد جيل فصرنا لا نرى في كليوباترا سوى امرأة لا تجيد سوى فنون الهوى ونسي المؤرخون والأدباء أن هذه الصورة التقليدية من صنع أجهزة الإعلام الإمبراطورية المغرضة في روما. فكليوباترا هي التي تحالفت مع أنطونيوس ووقفت في وجه إمبراطور روما أوغسطس فأوعز إلى أتباعه بشن هجمة دعائية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل على كليوباترا الملكة الشرقية المتمردة. ولقد قاد هذه الحملة الإعلامية فرجيليوس أمير الشعر اللاتيني وكذا هوراثيوس وبروبرتيوس.

ثم جاء بلوتارك وواصل الحملة مع بقية مؤرخي وأدباء الإمبراطورية الرومانية وقد استغل مؤرخون يهود هذه الفرصة السانحة فساهموا في الحرب الإعلامية الرومانية وشاركوا في تشويه سمعة كليوباترا. ومنهم نيكولاوس الدمشقي (المولود حوالي ٦٤ ق.م) كان يعمل مربيا لأبناء

كليوباترا، ثم ترك خدمتها وانضم إلى حاشية الملك اليهودى هيرود (هيروديس) الكبير ولقد ألف نيكولاوس الدمشقي كتابا بعنوان «عن الحروب اليهودية» وله مؤلف آخر بعنوان الآثار اليهودية، في عشرين جزء، وقد ضمن فلافيوس يوسيفوس الكتابين معلومات عن علاقة كليوباترا بالملك اليهودى هيرود الكبير.

وبداية نسأل: كيف يمكن الاعتماد على رواية مؤرخ استمد معلوماته من مذكرات الملك اليهودي نفسه ومن نيكولاوس الدمشقى الحاقد على كليوباترا بعد أن فقد شرف خدمتها فصار من أخلص أتباع هيرود؟ بقي أن نعرف أن فلافيوس يوسيفوس نسب إلى أبيون مقالا يمتدح فيه كليوباترا وينتقد اليهود فما كان من فلافيوس يوسيفوس إلا أن اتهمه بمعاداة السامية لأنه شايع كليوباترا. والسؤال الآن ماذا سيفعل هذا المؤرخ بكليوباترا نفسها؟

لقد غطت توسعات كليوباترا في الأرض بفضل هدايا حليفها وزوجها أنطونيوس مساحات شاسعة. لقد أرادت هذه الملكة أن تحيي الإمبراطورية البطلمية التي أسسها جدها بطليموس الأول المنقذ (حوالي ٣٦٦/٣٦٧ – ٢٨٣ / ٢٨٢ ق.م). وهى إمبراطورية ضمت أجزاء كبيرة من سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن بل وشملت أجزاء من آسيا الصغرى. وهذه الممتلكات التي استعادت كليوباترا معظمها غطت مناطق غنية بالغابات التي استغلت كمصدر أساسي للأخشاب في عصر البطالمة الأوائل بل ومنذ العصر الفرعوني. ومن هنا نفهم حرص كليوباترا على ضم هذه الأراضي من ناحية ومدى أهمية أن تمتلك مصر هذا العمق

الاستراتيجي اللازم لبناء الأساطيل من ناحية أخرى، ويمكن أيضا أن نتفهم لماذا وهب أنطونيوس هذه الأراضي إلى كليوباترا فلقد أراد أن تلعب مصر بأساطيلها القوية دور الشرطي في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث توفرت لدى مصر القوة البشرية والخبرة الملاحية ولم يكن ينقصها سوى الأخشاب وها هو أنطونيوس يسد هذا النقص.

وكانت كليوباترا قد استولت على بعض الأراضي من ممتلكات هيرود ملك اليهود، وكانت علاقاتها بهذا الملك من قبل مثار ضيق وحرج لأنطونيوس، فبعد أن كانت الملكة المصرية على علاقات ودية معه تغير الحال وصارا عدوين لدودين. ذلك أنه بعد أن كان هيرود أميرة مناضلا في المنفى أصبح الآن حاكمة في القدس وهو المركز الذي جعله يمثل العقبة الكئود أمام طموحات كليوباترا في إحياء الإمبراطورية البطلمية. وبالمنح التي وهبها أنطونيوس إلى كليوباترا أصبحت الملكة المصرية تحكم أراض تحوط بالمملكة اليهودية من كل جانب مما دفع هيرود إلى أن يحصن حدوده الجنوبية خوفا من وقوع غزو مصرى مفاجئ.

لذا يمكن أن ننظر إلى صورة كليوباترا في رواية المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس التي ساهمت دون شك في تثبيت سمعة كليوباترا السيئة على صفحات التاريخ. لقد قامت الملكة المصرية – وفق هذه الرواية – بزيارة المملكة اليهودية بفضل وساطة نيكولاوس الدمشقي الذي كان عندئذ يقوم على تربية أطفالها والذي انتقل فيما بعد إلى خدمة هيرود وأصبح مستشاره الخاص. ولقد حفظ لنا فلافيوس يوسيفوس بعض

الفقرات المقتطفة من مؤلف نيكولاوس الدمشقى تاريخ العالم، ومنها الفقرة التالية التي تعطى لنا رواية هيرود المريبة لزيارة كليوباترا الغريبة للمملكة اليهودية.

ومن الواضح أن هذه الرواية اليهودية عن محاولة كليوباترا إغواء الملك اليهودي هيرود مختلقة ولا أساس لها من الصحة، لقد كان هدف هذا الملك متطابقة مع هدف كليوباترا في أن يظل كل منهما عند حسن ظن أنطونيوس وعلى وئام تام معه. وليس بقتل كليوباترا سيكسب هيرود رضي العاهل الروماني كما أنه ليس بإغواء هيرود ستحافظ كليوباترا على حب وحماية أنطونيوس لها. ومن المرجح أن الذي حدث هو أن الملك اليهودي بعد موت كليوباترا وأنطونيوس أراد أن يكسب ثقة عدوهما المنتصر أوغسطس فزعم ما زعم وأشاع أنه قد حاول مرارة أن ينصح أنطونيوس بالتخلص من كليوباترا والتخلي عنها وأنه نفسه كان يفكر في قتلها لتخليص العالم من شرورها. إن قصة محاولة كليوباترا الإغواء هيرود هى محض افتراء مغرض من جانب هذا الملك اليهودي الداهية أريد بها تلطيخ سمعة كليوباترا وتشويه صورة هذه الملكة التي سيطرت على عقل وقلب أنطونيوس محرك الأحداث في منطقة الشرق.

الناشر

كليوباترا المفترى عليها

حبيب جاماتي

الملكة كليوباترا من الشخصيات التاريخية التي تضاربت فيها الأقوال، واختلفت الأحكام. هل هي خائنة أم مخلصة؟ جبانة أم شجاعة؟ سافلة أم نبيلة؟ كاذبة أم صادقة منافقة أم صريحة ثم هل هي حقا امرأة فاسقة فأجرة، كما وصفها كثيرون من المؤرخين، وعلى الأخص الدين ينتمون إلى العنصر اللاتيني، والذين أرادوا أن يمجدوا روما على حساب مصر؟

قرأت كثيرا من الكتب عن تاريخ مصر في عهد البطالسة، وعن الملكة كليوباترا بالذات، وكان رأيي الأول فيها بضعها في مصاف النساء الخاطئات، المذنبات، اللواتي ضحين بالفضيلة، وعشن للرذيلة، ومع مر الأيام، وتعدد المطالعات، وكثرة المقارنات بين أقوال وأقوال، ووقائع ووقائع، تبدل الرأى عندي شيئا فشيئا، وحلت في ذهني لكليوباترا صورة أخرى غير التي كانت قد طبعت فيه صورة اعتقد الآن أنها تطابق الواقع وتتفق مع الحقيقة..

وأنا ارسم للقارئ الآن هذه الصورة التي رسخت في ذهني، وأقدم له كليوباترا الملكة كما صرت أتصورها، ولا أخاله إلا موافقا على ما ابسطه له.

تعال معي نسير جنبا إلى جنب مع كليوباترا، ونمشى معها خطوة

خطوة، ولكنها خطوات سريعة بالنظر إلى فريق المقام، منذ أن رأت ابنة بطليموس النور، في سنة ٦١ قبل الميلاد، إلى أن فقدت الحياة بلدغة الحية – كما هو معروف – في سنة ٣٠ قبل الميلاد، وفي نهاية السنة الثامنة والثلاثين من عمرها.

توصف كليوباترا عادة بأنها هي التي ضحت باستقلال مصر، وجعلت منها ولاية أو مستعمرة رومانية، أو بلدا خاضعا لسلطان روما.

هذا خطا، وهذه تهمة باطلة!

حين ولدت كليوباترا كانت مصر في الواقع خاضعة لذلك السلطان. وأبوها وجدها ضيعا استقلال دولة البطالسة وفرطا في سيادتها، فعاش كل منهما راضيا بان يكون تابعا لا متبوعا.

يقولون أنها كانت جميلة فتانة، ولكني أعتقد أنها لم تكن جميلة بقدر ما يحلو للبعض أن يسبغوه عليها من سحر وبهاء ولكن جمالها كما وصفه المؤرخ الايطالي "كركوپينر" في قوله: « أنها كانت أشبه بالفتي الجميل منها بالفتاة الفاتنة، ولكنها كانت فاتنة في دلالها، ساحرة في رشاقة حركاتها وكانت على جانب عظيم من الذكاء، وسرعة الخاطر، وحلاوة الحديث، ونعومة الصوت، وقوة الحجة، تجيد رابع أو خمس لغات، ولا تدع للخوف منفذا إلى صدرها هذا هو سحرها، وهذا هو سر سيطرتها على العقول، وعلى القلوب!

في سنة ٥١ قبل الميلاد، مات أبوها، وخلفته على العرش بالاشتراك مع أخيها بطليموس وقد تزوجته عملا بالتقاليد المرعية في

ذلك الوقت، وكان أصغر منها بسبعة أعوام، هي في نحو السابعة عشرة، وهو في نحو العاشرة؟ تأمر عليها عظماء المملكة الموالون لأخيها، والذين أرادوا أن يستأثروا بالحكم دونها بالسيطرة على أخيها. فاضطرت إلى الهرب. ولجأت إلى الصحراء الشرقية وصحراء سيناء، حيث احتمت بالقبائل «العربية» الضاربة هناك، فجمعت من رجال تلك القبائل جيشا دافع عنها وساعدها فيما بعد على استرجاع ملكها.

فهي إذن مدينة بالحياة، ومدينة بالعرش، إلى حد بعيد، لأولئك الفرسان العرب.

هذه حقيقة يضرب المؤرخون عنها صفحا، عادة، ويجمل بنا أن تعيد ذكرها إلى الأذهان كلما سنحت الفرصة.

وكان يوليوس قيصر قد جاء إلى مصر بجيشه، فرات بثاقب نهنها أن هذه فرصتها للعودة إلى عرش مصر، وانه لابد لها من حيلة تمكنها من دخول مصر، إذ انه ليس في مقدورها الانتصار على جيش يوليوس قيصر.

كانت كليوباترا رغم صغر سنها عظيمة الاعتداد بنفسها، والثقة بمواهبها والجرأة والإقدام على كل ما تعتزم عمله، فأقدمت على مالا يمكن أن يخطر ببال.

لقد سجل التاريخ تلك الحادثة الرائعة، ولكنهم لم يستخلصوا منها إلا كل ما يسيء إلى سمعة تلك الملكة العظيمة، وغفلوا عما في الحادثة من رغبة عظيمة في الاستيلاء على مصر وتخليصها من نير قيصر، ومن

ثقتها العظيمة بنفسها، وجرأتها البالغة.

طلبت كليوباترا من أعوانها أن بلغوها داخل سجادة ثمينة، وان يذهبوا بهذه السجادة إلى بوليوس قيصر، ويقدموها هدية إليه، وان عليهم أن ينشروا السجادة أمامه. وعليها البقية.

وتم ما أرادت، وبرزت كليوباترا من السجادة في ثوب أنيق، وجلال وجمال وسحر وفتنة، وحيت يوليوس قيصر في جرأة عظيمة، وفي مهابة كبيرة.

وأعجب يوليوس قيصر بهذه الجرأة وبتلك الفكرة الجميلة، فأجلسها إلى جانبه، وسرعان ما فتنته بحلو حديثها، وعذوبة صوتها، وحدة ذكائها، وقوة حججها، وما في عينيها من شعاع أخاذ، وما في حركاتها من رشاقة ودلال.

وأصبح يوليوس قيصر فبدا من عبيد سحرها.

ويصفها المؤرخون اللاتينيون بأنها امرأة فاجرة خاطئة، وأقول، ويقول " كل منصف، أنها امرأة استخدمت كل ما وهبها الله في سبيل تحقيق غايتها ، وقد وهبها الله هذا السحر وتلك الأنوثة الفياضة، فاستخدمت كل تلك الأسلحة في سبيل إخضاع أولئك الذين يقفون عقبة كئودا في سبيل ملكها، وفي سبيل غايتها الكبرى.

وقتلت كليوباترا أخاها وأختها، بمعونة قيصر، حتى لا تشغل نفسها بمؤامراتهما، وانفردت بالسلطان. بيد أن يوليوس قيصر، رغم افتتانه بها،

لم يمكنها من الاستقلال الذي كانت تسعي إليه، وبقيت مصر تابعة لروما.

ولما عاد قيصر إلى روما، واغتيل فيها، بدا النزاع بين خلفائه، وخاصة مارك انطونيوس واوكتافيوس وأخيرا تم الاتفاق بينهما على أن يكون الشرق الأدنى، ومنه مصر، تابعا لانطونيوس.

وعلمت كليوباترا بهذا التقسيم، فاعتزمت أن تتخذ من انطونيوس هدفا، وان تستولي عليه ولأسره بحلو دلالها، وسحر بيانها، وأن تستعين به في إنشاء دولة كبرى تضم مصر وفلسطين وسورية وأرمينيا، وأن تجعل من الإسكندرية عاصمة لهذه الدولة الكبيرة، وأن تكون هي ملكتها، ولا غبار في أن يشاركها انطونيوس في الملك.

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كليوباترا كانت تعد نفسها المصرية لا « إغريقية »، وتقول أنها «شرقية» وأن الشرق منبت الحضارة ومبعثها وكانت تتكلم بلغة البلاد التي حكمتها أسرتها ثلاثة قرون، وتعبد آلهتها، وتدين بدينها، وتسير على تقاليدها، وتعمل جادة في سبيل إدماج العنصر اليوناني الإفريقي في العنصر المصري إدماجا تاما. فالدولة التي أرادت كليوباترا أن تنشئها في الشرق، دولة مصرية شرقية، والقائد الروماني الذي أرادت آن لشركه معها في الملك لم يكن في نظرها فير وسيلة أو أداة لتحقيق هذا المشروع الضخم...

ولما اتصلت أواصر مارك انطونيوس بأوامرها، احنه وأحبها ونشا ذلك الحب الذي ملك مشاعر العاشقين بمثابة « المونة » التي تضم

حجرين في بنيان مرصوص.

أحبت كليوباترا ذلك القائد الموفق، فأرادت أن تستخدمه، كروماني، وأن استخدم عبقريته، ونفوذه، وسلطانه على بني نومه وجيوشه، للسيطرة على الشرق.

وقد التف الشعب المصري حول كليوباترا، وسايرها عظماء مصر في سياستها، وأيدتها العناصر اليونانية التي كانت تعيش في وئام ومحبة مع العناصر المصرية، وانضم إلى تلك القوى فريق الرومان الذين تحزبوا لانطونيوس وحاربوا في صفها ضد خصمه اوكتافيوس.

كان الرومان يصفون الشرقيين بأنهم « برابرة » ولكن كليوباترا استطاعت أن تصحح هذا الوصفة بأن أعلنت - وأعلن عشيقها انطونيوس معها – أن « البرابرة » هم الغربيون لا الشرقيون، وأن القوة المادية وحدها لا تكفي لتبرير طغيان شب على شعب، وادعائه أنه يحتكر الحضارة والمدنية.

وتابعها انطونيوس في تفكيرها، ولم يكن مدفوعا بحبه الطافى فحسب بل الواقع أن كليوباترا الساحرة استطاعت التأثير على تفكيره، وتحويل مشاعره وميوله إلى الناحية التي تريدها، فابتعد الرجل شيئا فشيئا عن وطنه، وقومه، ودينه، وأصبح أو كاد يصبح شرقيا مثل المرأة التي انقاد لها واستسلم لرغباتها.

ولما وقعت الواقعة بين انطونيوس واوكتافيوس، وعمد الاثنان إلى السلاح لفض النزاع بينهما، وضعت كليوباترا تحت تصرف انطونيوس كل

إمكانياتها– الجيش والمال والسلاح والذخائر والمؤن والأسطول – لأنها اعتبرت أن قضية عشيقها هي قضيتها، وأن النصر الذي سوف يحرزه هو نصر لها ولمصر وللشرق الأدنى الذي أرادت الملكة أن تنشئ فيه إمبراطوريتها المصرية.

ولم قادت بنفسها الأسطول المصري لمنازلة الأسطول الروماني جنبا إلى جنب مع سفن انطونيوس كانت الأعلام المصرية ترفرف على سفنها، وكان الجنود والبحارة المصريون هم الذين يقودون الأسطول ويحاربون في البر والبحر.

ولنذكر هنا أن الأسطول المصري كان مؤلفا من ثمانمائة سفينة، بين مقاتلة وناقلة!

وفى ٢ سبتمبر سنة ٣١ قبل البلاد وقعت معركة « اكتيوم » عند سواحل اليونان، بين انطونيوس وكليوباترا من ناحية، واوكتافيوس والرومان أنصاره من ناحية أخرى.

وهنا قسا المؤرخون في حكمهم على كليوباترا وظلموها... نقد انسحبت من المعركة بأسطولها وعادت إلى الإسكندرية، فقيل أنها خانت وجبنت... والحقيقة غير هذا.. فقد شعرت في خلال المعركة أن النصر لن يكون بجانبها، وأن مواصلة القتال معناه هلاك الأسطول وتدميره. والأسطول كان يحمل الجزء الأكبر من جيشها، وكنوزها، وجواهرها، وكل ما تملك!

أرادت أن تنقذ هذا كله لكى تواصل القتال في مصر نفسها، وتدافع

عن ملكها وبلادها، وتمنع الرومان من القضاء على أحلامها ومشروعاتها.

وكان في وسع انطونيوس أن يواصل القتال وحده في اكتيوم بينما عشيقته تنصرف الى إعداد العدة للدفاع في مصر...ولكنه جن عندما علم بعودة كليوباترا إلى مصر، ولعله خشي أن تفر من بين يديه، وأن تكون من نصيب خصمه، ولهذا بادر إلى التخلي عن المعركة تاركا جيشه بدون قيادة، لان المرأة التي يحبها ابتعدت عنه، فاعتقد انه فقدها وفقد معها حبه!

عاد إلى الإسكندرية. وكانت الملكة قد جمعت بعض أخصائها ووضعت كنوزها في مكان أمين. ثم وقع ما لم تقدره كليوباترا، وما ثناء القدر أن يكون، فقد قيل لانطونيوس أن كليوباترا قد انتحرت فانتحر قبل أن يتأكد من صحة الخبر.

انتحر القائد الروماني قبل أن يلتقي بخصمه في ارض مصر، وقبل أن يستنفد وسائل الدفاع عن عاصمة كليوباترا. وهي أيضا عاصمته. وقبل أن يفقد الأمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه على الأقل. أما هي، فقد نقلت الجريح إلى المخبأ الذي كانت فيه - وواسته في ساعته الأخيرة، وحاولت أن تحمل خصيه وخصمها، أوكتافيوس، على وقف القتال والتفاهم على هدنة تستعد خلالها لمواجهة الحالة الناشئة عن فرار عشيقها وانتحاره، لكنها فقدت كل أمل، من المقابلة الأولى بينها وبين أوكتافيوس المنتصر...

فماذا كان يريد!

ضم مصر وسورية إلى الحصة التي آلت إليه من ميراث قيصر. وجر الملكة كليوباترا خلفه إلى روما أسيرة ذليلة، وربطها في ذيل حصان يجتاز بها شوارع المدينة. أدركت هذا، فقررت أن تنتحر! وكان انتحارها هربا من الذل والعار. فلم ليكن إذن جبنا، بل كان شجاعة!

ولما مات كليوباترا، وتم النصر لاوكتافيوس، حمل الرجل معه إلى روما تمثالا لها من الذهب الخالص كان يزين قصرها بالإسكندرية، وجره خلفه في موكب النصر.

كليوباترا والغرام الذي غير وجه التاريخ [1]

هنري بوردو

هذه الفاتنة، الماجنة : كليوباترا...

هذه العاصفة الهوجاء : كليوباترا...

هذه الماكرة الساحرة.. مقوضة العروش ومثيرة الفتن.. التي أشعلت نار الحروب، كما أشعلت النار في القلوب!!.. لكم أتعبت المؤرخين والمؤلفين، والشعراء والكتاب والروائيين، من قدامى ومحدثين!

لقد كتب عنها « بلوتارك ».. وعني بأمرها « شكسبير ».. ولعنها من لعنها، وأحبها من أحبها.. وكان الذي يلعنها يحبها ويركع تحت قدميها ودافع عنها كثيرون.. وأفرغوا في الدفاع عنها المحابر وظلت شخصيتها الفذة تترنح بين الفادحين والمادحين.. تقاذفها التيارات المتعارضة، والأقوال المتناقضة، وهي من القلق لا تستقر على حال!

١- الإسكندرية.. كما رأيتها

كانت الإسكندرية أول مدينة وقع عليها بصري في الشرق، فرأيت فيها تلك الشمس الساطعة التي تغلف أشعتها الدافئة أفقها التسع الصافي الأديم، وتنسكب على مياه البحر الباهتة الزرقاء.. لكني إذا

---

(١)فصل من كتاب « ملكات ونساء »

استثنيت هذه الروعة التي أحسستها من النظرة الأولى إليها، وجدتها تدعو إلى خيبة الأمل.. فقد رأيتها خالية من كل معالم التاريخ الخالدة التي سيطرت على صفحات مصر! إلا معابد ولا تماثيل من تلك التي تزدان بها مصر العليا.. ولا شيء يذكرك بأنها المدينة التي أسسها الإسكندر.. ووقع يوليوس قيصر في شرك غرام كليوباترا فوق أرضها.. وغزاها « نابليون بونابرت » ليبعثها إلى الحياة من جديد بعد أن ظلت قرونا محنطة كالمومياء.. بل المدينة التي التقت فيها الدنيا بأسرها : التقى فيها الغزاة المنتصرون، وتعانق فيها الحب والموت.. ومن الجزر البريطانية التي يغطيها الضباب نظم (شكسبير) شعره الخالد من غرامها بانطونيو!

ومن العبث أن تسأل في الإسكندرية هذا السؤال : أين القبر الذي ترقد فيه «كليوباترا»، بعد أن أحرقت جثة «انطونيو» على اثر انتحاره؟! أن أحدا لم يستطع العثور على هذا القبر.. أما جسد انطونيو فقد أكلته النيران..

لقد اندثر كل هذا الماضي الفخم الحافل بالأحداث الجسام.. ولم يعد الإسكندر، ويوليوس قيصر، ومارك انطونيو، إلا مجرد أسماء!.. فإذا كان هناك اسم ما زال يرن صداه في الإسكندرية فهو اسم « نابليون بونابرت » الذي ما يزال ذكره فيها ضخما، ضخامة تمثال «ممنون» الرابض على إحدى ضفاف النيل، في مصر العليا، يبث النيل شكواه كلما أشرقت عليه الشمس لتلفحه بحرارتها.. وليس كمصر بلد يمجد الموت.. وليس الإسكندرية مدينة تنسج فيها خيوط النسيان.

لقد كانت الإسكندرية في عهد كليوباترا اكبر مدينة في العالم بعد روما، وهي تطل على البحر الأبيض المتوسط، تفصلها عن الدلتا المصرية بحيرة مريوط التي كانت تتدفق عليها جميع حاصلات البلاد الداخلية.. ترى إلى أي حد كانت تمتد سلطة الملوك القدماء في داخل البلاد؟! اننا تستطيع الحكم على ذلك من كنوز كليوباترا التي لم يعرف التاريخ لها نظيرا، والتي كانت تكتنزها حتى حدود السودان في إفريقيا.

ومناخ الإسكندرية المعتدل يجعل الإقامة فيها ممتعة مريحة.. ولا يعدل جمال مبانيها إلا جمال حدائقها العامة.. وأهلها مزيج من جميع الأجناس وان كان العنصر الإغريقي هو الغالب بينها – فهي تأوى سكان البلاد الأصليين، والإيطاليين، والفينيقيين، والسوريين، والأرمن.. الخ.

ويتميز أهل الإسكندرية بالاندفاع وقلة الاكتراث، ولكنهم برغم ذلك أكفاء في الأعمال، يحرزون فيها نجاحا عجيبا. يضاف إلى ذلك تذوقهم للنكتة المليحة. وقد شبه المؤرخ «فيرارو» الرجل الإسكندري في عهد «كليوباترا»، بالباريسي في عهدنا الحاضر!.. ولكم وددت لو اكتملت المقارنة من جميع نواحيها.. ولكن كليوباترا تنقصنا اليوم في باريس، مع الأسف!

والإسكندرية الآن مدينة تجارية كبيرة كثيرة الحركة، تعج بالأعمال، ذات مبان كبيرة، ما في ذلك شك. وجوها صحو وهواؤها جميل عليل.. ولكنها رغم كل هذه المؤهلات، ليست على شيء من الجمال الحقيقي.. وأكثر ما تدب فيها الحياة في فصل الصيف، حين ينتجعها

المصيفون من جميع أنحاء مصر ليستمتعوا بهوائها وبحرها.. وقد زارها « موريس باريز » فأبدع في وصفها حين قال : « إن الإسكندرية هي إحدى مدن العالم التي تنفي فيها بأكبر مجموعة من النساء الفاتنات.. أن الإغريقيات فيها يخلبن اسلب بقوامهن الممشوق وأعطافهن الرخصة.. ونساء الإسكندرية أنفسهن رانيات ساحرات.. وفي هذه المدينة تلتقي جميع أجناس العالم، هذه الأجناس التي ترتبط فوق أرضها بأقوى روابط المودة والإخاء.. »

ولقد صادفت أثناء زيارتي لها بعضا من هؤلاء الفاتنات اللواتي قدمن إليها من كل فج وصوب.. فرأيتهن جميعا يلبسن أحدث وأرشق أزياء باريس، ويتحدثن بلفات متعددة مختلفة تكون مزيجا رائعا عذبا ٠ ٠ وكان الزي الجديد الذي شاع واستحوذ على نساء الإسكندرية، أثناء زيارتي لها، هو زي مكان الصحراء!.. غير أن هؤلاء الجميلات لم يلقين بالا إلى أنهن قد نزعن عن هذا الزي طابعه الخاص الذي تتميز به الصحراء، إلا وهو : « طابع الوحدة!»

٢- من هي كليوباترا؟

عندما نريد أن نتناول شخصية (كليوباترا) يتعين علينا أن نأخذ حذرنا من المؤرخين الرومان.. فان المنتصر يكتب التاريخ دائما على هواه! فهو يعمد إلى سحق شخصية المهزوم وتشويهها. ولقد حاول « أوكتاف » (اوكتافيوس). هذا الحاذق الماهر، الذي كان دبلوماسيا أكثر منه محاربا، وكان مجردا من العبقرية والسمو، إذ لم يبرع في شيء إلا في

الأساليب التي يمكنه أن يستغل بها انتصاراته! لقد حاول « اوكتاف » هذا أن يشوه سمعة كليوباترا التي كانت تنافسه في الشهرة وذيوع الصيت أكثر مما ينافسه مارك انطونيو!

ولعلها عادة درج عليها التاريخ : فان إليزابيث ملكة انجلترا قد شوهت سمعة مارى ستيوارت.. ومرغت الثورة الفرنسية سمعة ماري أنطوانيت في الوحل.. فلنحافظ على تراث الإنسانية التليد من هؤلاء الحقراء الذين ينالون منه بدافع الغيرة والحسد!

وهكذا فعلت روما، فقد بذلت أقصى جهدها في تصوير (كليوباترا) على أنها امرأة مجردة من الخلق، ملهمة للشر، مدمرة، هدامة، فاجرة!. في الوقت الذي كانت فيه روما هذه – بالذات – مباءة للأقذار، تعب في الشهوات ولا تتورع عن اقتراف أبشع جرائم الفسق والمجون! .. حقا لقد كان من سخرية الأقدار أن تنبري روما لاتهام كليوباترا، وهي – روما – التي تراجع فيها الشرف أمام الدعارة، والمتع المبتذلة، وبيع الأعراض.. فاحتلت الداعرات مكان الصدارة فيها، (مثل ام « بروتس » وزوجة «لوسيلوس »، وزوجة «سيزاروس ».. الخ)

نعم، روما تتهم كليوباترا، وهي المدينة التي كانت الرشوة فيها هي القانون، وشراء الذمم هو دستور الحاكمين!.. فلنتريث إذن قليلا أمام اتهامات روما الزائفة لكليوباترا، لأنها اتهامات مبنية على الحقد والحسد والافتراء!

وقبل أن نتحدث عن كليوباترا وترسم صورة لها، ينبغي أن نتساءل : من هي كليوباترا؟ وما مقدار حظها من الجمال الذي تحدث عنه

«بسكال»، وجعله سببا في تغيير تاريخ العالم؟

يحدثنا (بلوتارك) عن جمال « كليوباترا » فيقول انه لم يكن جمالا خارقا يذهب بالمب ويسلب الرشيد، ولكنه كان أنوثة وجاذبية ليس إلى الصمود أمامهما من سبيل!.. يضاف إليهما ذكاء لماح، وحديث طلي ساحر ينساب في صون ذي نغمات موسيقية، سحر كل من سمعه من الناس، من جميع الأجناس!!.. وبالرغم من أن « ديون كاسيوس » كان قاسيا في الحكم عليها، فانه وصفها بقوله : ((لقد كانت تبدو رائعة لسامعيها ومشاهديها معا، قادرة على أن تغزو أصلب القلوب عودا.. لا سيما بسحر حديثها وصوتها الموسيقي اللذين كانا يوقعان في أسرها كل من يراها أو بسمعها بغير استثناء!!))

فهذا الوصف، أو هذا الثناء، يظهر لنا « كليوباترا » بعيدة عن ذلك « الفوران الحسي » الذي يتميز به الشرق عموما ونساء الشرق على وجه الخصوص!.. والواقع أنه لم تكن في عروق كليوباترا – على وجه التحديد والتوكيد – قطرة واحدة من الدم الشرقي و. فلقد كانت يونانية صميمة) نزحت أسرتها – التي كانت تدعي أسرة البطالسة – من (مقدونيا).. وكانت ذات بشرة بيضاء، إن لم تكن ش قراء، وعينين زرقاوين – وقال بعض المؤرخين أنها كانت ذات شعر بني وعينين تميلان إلى السمرة – ولكنها على أي حال كانت بعيدة عن أن تكون مصرية سمراء، لها ما للمصرية من شعر أسود فاحم وعينين واسعتين من ذوات الأهداب الطويلة!.. والصورة الوحيدة التي لدينا الكليوباترا هي التي وجدت على بعض قطع النقود، ومنها نستنتج أنها كانت ذات انف صفير

مقوس وقوام متوسط الطول.. أما أجمل تماثيلها فقد دمر!.. ولعلها كانت قصيرة القامة، وقد استنتج ذلك من الطريقة الرشيقة المفعمة بالدول التي كانت تحاول أن تمد بها قامتها أمام يوليوس قيصر... وبالاختصار فقد كانت جميلة بلا مراء، لكن جمالها لم يكن ذلك الجمال الذي لا عيب فيه.. وإنما كانت جاذبية كليوباترا، وسحرها، وفتنتها، كامنة كلها في نبرات صوتها.. وهنا يصفها «بلوتارك » بقوله : ((أن الخلوة معها كانت ذات فتنة لا تقاوم!.. وقوة الإغراء التي تتدفق في نبرات صوتها، والأساليب العجيبة التي كانت تنفرد بها في تكييف كل ما يصدر عنها، كل ذلك كان يحدث فيمن يراها ويسمعها تأثيرا عنيفا مشيرا!)).. يضاف إلى هذا، حركة دائبة دائمة لا تفتر.. فهي شعلة من نار، تحرق وتنير، وتتدفق طوفانا من الحيوية والحياة.. فنراها تقفز من العبوس إلى الضحك في لحظة، ومن القسوة إلى الرقة في طرفة عين. وتنزل من قمة الخيلاء إلى سفح الطفولة والصبيانية دفعة واحدة!.. ولما كانت قد ولدت على أريكة الملك، لأنها من سلالة عدة ملوك، فقد عرفت كيف تعون للملك كرامته، وتحفظ له وقاره ومهابته.. وكانت مولعة بإحاطة نفسها بأبهة الملك وبهرجه وزخرفه، لتحمل رعاياها على إجلالها وإكبارها وتعظيمها وقد رآها « شيشرون » فوصفها بأنها كانت « شديدة الكبرياء! ».

وكانت طموحة، ليس لطموحها ولا لأطماعها حد.. فأرادت أن تجعل من مصر مملكة قوية جبارة في الشرق، كما أرادت أن تجعل من الغرب - بواسطة قيصر وانطونيو – إمبراطورية قوية جبارة بدورها في الطرف الآخر من البحر الأبيض.. وكانت عوامل السياسة ومفاجأتها

تتنازع كليوباترا وتتقاذفها في غير اتزان.. فلم تكن لتهاب الحروب، وكان مجرد وجودها وسط الجنود في ميادين القتال يلهب مشاعرهم ويشعل حماستهم إلى حد الجنون!.. وكان جنودها ورعاياها يتقبلون الإسراف في بهرجها بالرضا والإعجاب، لأنه لم يكن في تقديرهم بهرجا زائفا وبريقا خداعا، بل كان قطعة منها.. كان هو « كليوباترا »

نعم، كانت مقدامة شجاعة لا تخشى الموت، ولا تهاب المغامرات التي قد يترتب عليها مصير الإنسانية جمعاء!.. شديدة الثقة بنفسها، ويطالعها السعيد ونجمها الصاعد.. فادا أصابها مكروه قاومت بلد لا يتراجع ووعناد لا تزحزحه الجبال!.. ولقد عاشت ملكة في كل أطوار حياتها.. فلما اقترب منها الموت بوجهه الكالح المرهوب، واجهته كملكة أيضا!

وبالرغم من أنها كانت مندفعة متهورة، إلا أنها كانت واسعة الأفق والعقل والإدراك : فهي سليمة النية وماكرة مما.. سريعة الغضب وقادرة على ضبط أعصابها في آن واحد.. فكانت تلتقي فيها اكبر مجموعة من المتناقضات التي يستحيل أن تتجمع في إنسان، أو تلتقي في مكان!.. فكما وصفها « آرثر ويجل : « كانت تحرك بيديها البضتين الناعمتين مصائر الإنسانية.. فهي رداء نسيجه من الظلال والنور! »

وعليه فكيف يريدنا الناس أن نصدق المؤرخين الرومان الذين يصورونها لنا في صورة المرأة الماجنة الداعرة المستعبدة لحواسها؟.. أننا إذا تتبعنا حياتها لا نجد إلا الطموح والحب، مجتمعين.. ولقد أحيت

مرتين، وكانت في كل مرة تحب رجلا يكبرها في السن، ورغم ذلك فقد ظلت وفية لهما، وفاء المرأة لزوجين (شرعيين » متعاقبين. وكانت أما لأربعة أطفال، أنجبت واحدا منهم من قيصر والثلاثة الآخرين من مارك انطونيو، وظلت ترعاهم وتحميهم إلى آخر نسمة من حياتها.

هذه هي المرأة التي حاولت روما أن تمرغها في الوحل لأنها لوثت الرومان!.. روما التي سدت فيها تجارة محترفات الدعارة لشدة منافسة نساء الطبقة الأرستقراطية لهن في هذه التجارة..!

تولت كليوباترا الملك وهي في السابعة عشرة من عمرها، على أثر وفاة والدها « بطليموس الثالث عشر »، الذي ترك الملك مناصفة بينها وبين ابنه « بطليموس ».. وكانت « كليوباترا)) كبرى بناته، فلقيت بكليوباترا « السابعة »، كما كان أخوها بطليموس اكبر أولاده فحمل لقب « بطليموس الرابع عشر »..وكانت التقاليد المصرية تقضي بان يتزوج الأخ من أخته حتى يظل الدم الموروث من الآلهة نقيا لا يشوبه دم أجنبي! ولكن « بطليموس » كان في الحادية عشرة من عمره، فأراد أحد الخصيان – ويدعى « باثان » – أن ينفرد بالملك باسم الأخ الصغير، فطرد كليوباترا واضطرها إلى الفرار إلى سوريا حيث جردت هناك جيشا لمقاتلته.. والتقى الجيشان في مدينة « بيلوزا » – التي هي الآن مدينة (بورسعيد) – وتأهبا للقتال!

وبطريق الصدفة، وصل إلى (بيلو زا) في تلك الآونة القائد الروماني المشهور « بومبى » – منافس قيصر – بعد أن هزمه الأخير في

معركة (فارسال).. ولجأ بومبي إلى بطليموس، طالبا منه أن يحميه، جزاء له على دفاعه عن مصر.. لكن قيصر جاء إلى مصر في أثره، ليقضي على ما بقي من فلول جيشه.. وذبحته جيوش قيصر في بورسعيد ذبح الشاة، على مرأى من زوجته التي ولت الإدبار، بمساعدة فرقتين من جيش زوجها المهزوم!

٣- كليوباترا.. وقيصر

لما دخلت جيوش يوليوس قيصر إلى مصر منتصرة، أصدر قيصر أمره إلى كليوباترا وأخيها بتسريح جيشيهما والمثول أمامه، ليكون حكما فيما بينهما من خلاف... فامتثلت كليوباترا، أما أخوها فأبى أن يسرح جيشه، وحال بينها وبين الذهاب للقاء قيصر، بأن سد عليها منافذ الطرق وسبل الهرب.. فماذا صنعت الماكرة؟

كان من أتباعها الأوفياء صياد من صقلية اسمه « أبوللودور »، فاتفقا على أن تركب زورقه في ظلام الليل، ثم يرافقها الصياد إلى قصر (لوتشيا) حيث يقيم قيصر!

ونجحت الحيلة، وأفلتت كليوباترا من براثن أخيها، فقد دخل الصياد قصر لوتشيا يحمل على كتفيه « بساطا » مطويا.. وبشجاعة فائقة تقدم من قيصر، ثم أنزل حمله وبسطه أمامه بحركة سريعة، فإذا بكليوباترا تخرج منه، وترتمي على قدمي قيصر!

أذهلت المفاجأة قيصر، وراعته براعة الحيلة، وأمضي الليل في استجوابها، فأدهشه ذكاؤها الخارق، ولم يتمالك نفسيه من الإعجاب

بحسنها ودلالها، وصوتها الساحر!

كان قيصر يومئذ في الرابعة والخمسين، قوي الجسم، معتدل القامة، تبدو عليه العراقة والنبل وله وجه دقيق وعينان سوداوان، وملامح قوية، وفم ذو ابتسامة ساحرة حازمة.. يميل لونه إلى الاصفرار - الأمر الذي يدل على أن له حياة عنيفة صاخبة مع النساء! - وكان رشيقا، لا يزيد وزنه، على الستين كيلو جراما.. خبيرا بالألعاب الرياضية،كالسباحة وركوب الخيل، يمارسهما في خفة وبراعة!.. شديد التأنق في ملبسه، لا تفوته الأناقة حتى وهو في ساحات القتال!.. وفي هذا المضمار كان جنديا باسلا مقداما، وقائدا عبقريا يبعث الثقة به في نفوس جنوده، حتى ليجودون بأرواحهم في سبيل نصرته!.. كما كان واسع المعرفة بالعلوم والفنون والآداب، فصيحا، قديرا على التحمل والصبر إذا دارت رحى المعارك في الميادين.. وكان ذا إرادة حديدية، لا يتطرق اليأس إلى قلبه ولا تعرف الهزيمة إلى نفسه سبيلا!

وبالرغم من كل هذه الصفات السامية، كانت الغاية عنده تبرر الوسيلة!.. كان يشتري الأصوات لمرشحيه، ويقيم ولائهم لم يسمع التاريخ بمثلها - حتى لقد دعا مرة لتناول الغداء، اثنين وعشرين ألف نسمة! - وكان بدفع نفقات حفلاته الباهظة من الإتاوات التي يفرضها على المهزومين!

أما سلوكه مع النساء، فقد كان كله ضيعة وحقارة.. كان يفرر بهن، ثم يلقيهن في عرض الطريق، بعد أن يشبع منهن شهوته!.. وكان يتزوج

ويطلق بغير حساب. وقيل انه ارتكب في صباه من الموبقات، ما يقشعر لهوله البدن!

وأما سلوكه مع الرجال، فقد كان من نوع آخر.. انه في حاجة إلى الرجال، ولذلك برع في فن استمالتهم، بمعسول الكلم، والإسراف، والملق، والنفاق.. حتى يمتصهم إلى آخر قطرة، ويعيش على تضحياتهم، وبهذا انتشر في كل المعارك التي خاضها : انتصر في بلاد الغال، وانتصر على « بومبي » في (فأرسال).. وآلت إليه مقادير العالم!

هذا الطاغية، هذا القائد المنتصر، هذا الحاكم الذي لا مرد لقضائه وقدره.. ترى ماذا تستطيع أن تصنع معه فتاة صغيرة – ملفوفة في بساط؟!.. الا أن تكون فراسة جديدة من فرائس متعه المبتذلة وشهواته الدنيئة.. أو تكون وسيلة – باعتبارها ملكة – لإخضاع مصر لسلطانه!

لكن كليوباترا عرفت كيف تسلب لبه على مهل.. ولأول مرة راى قيصر نفسه أمام امرأة تختلف عمن تعود رؤيتهن! م. فبدأت كليوباترا تجد منه رعاية واهتماما بالغين، أخذا في التحول والتطور، حتى استحالا إلى.. حب!

نعم.. أحب يوليوس قيصر "كليوباترا"، ذلك الحب الذي يشعر به رجل الخمسين، عندما يحس اهتزاز قوائم الفتوة ودعائم الشباب في بدنه!.. وتطور حبه تطورا غير مجرى حياته، وجعلها تنحرف من أقصى اليمين.. إلى أقصى اليسار!.. فكان من الطبيعي. بعد ذلك – أن يسعى لإرضاء كليوباترا، بشتى الوسائل، فدعا أخاها للحضور أمامه... ولم يكن

بطليموس يعرف أن أخته استطاعت الفكاك من الحصار الذي ضربه عليها، فما أن مثل بين يدي قيصر، حتى فوجيء بها بجانبه.

كان بطليموس – إذ ذاك – في الخامسة عشرة، فلم يتمالك أعصابه من شدة المفاجأة، وأغلظ القول القيصر!.. لكن الثمن الذي دفعه كان باهظا : فبعد قليل اقتحم قيصر بجيشه أبواب الإسكندرية، ودخلها دخول الظافر المنتصر، وقضى على بطليموس وجيشه.. وبذلك تخلصت كليوباترا من منافسها، وصارت ملكة مصر بغير منازع!

وأرادت الماكرة الداهية أن تجمع الشعب المصري حولها.. انه شعب متدين، يعبد الإله آمون، فالتدخل في روعه أن قيصر، أن هو إلا الإله آمون متجسدا!.. وقد فعلت! وحين رزقت من قيصر بعد ذلك بابنهما ((قيصر الصفير)) – سيزارون – أدخلت في روع الشعب مرة أخرى أن الطفل ليس سوى ابن آمون هتجسيدا ايفا!.. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع قيصر أمام الشعب في وضع شرعى مقبول!

واستبد حب كليوباترا بقيصر.. فنسى روما والعالم بأسره، وهو يذرع النيل بين أحضان معشوقته، في رحلاتهما الشاعرية العديدة بسفينتها الفاخرة المشهورة.. وحين عاد إلى روما بعد فتوحه المظفرة، استقبل استقبالا لم يشهد التاريخ مثله! لقد قررت روما أن نحتفل به أربعة أيام متوالية، تبجيلا له وتكريما.. لكنه لن يهنأ بالمواكب الهاتفة باسمه، إلا إذا كانت حبيبته إلى جواره.. فأرسل يدعوها لتشاطره مجده، وتشاركه سعادته وهناءه!

ووافته كليوباترا في روما، وشاهدت معه مهرجانات الأيام الأربعة.. فراع جمالها وأبهة مظهرها أهل روما، وقد بدت إلى جانب قيصر أشد ما تكون كبرياء ودلالا.. لكنهم أخذوا يتوجسون خيفة من هذه الدخيلة عليهم، الأجنبية عنهم... ولم يجرؤ قيصر على طلاق زوجته ((كالبورنيا)) – ليتزوج من كليوباترا!– فقد كان يخشى غضب روما أن فعل.. ومن ثم راح يعبد الطريق مع ملكة مصر لتكوين مملكة مصرية رومانية متحدة، يؤول عرشها إلى « سيزارون)).. ابنه من كليوباترا!.. لكن تخوف روما من كليوباترا، من ناحية، وطمع قيصر في أن يصبح ملكا، من ناحية أخرى، أثارا عليه حقد الرومان وكراهيتهم.. وأحبطا مشروعه!

وأقامت كليوباترا في روما ثلاث سنوات، أخذت في نهايتها تستعد للعودة إلى مصر.. أما قيصر فقد أخذ يستعد لغزو جديد، تمهيدا لجمع الشرق والغرب تحت لوائه، في مملكة واحدة.. ولكن فيما هو يستعد لتلك الحملة، اغتيل في مجلس الشيوخ، بتدبير من أعوانه وفي مقدمتهم "كاسيوس" و" بروتس ".. وكانت الطعنة الأخيرة التي أجهزت عليه بيد صفيه الحميم (بروتس) – الذي يرجح كثير من المؤرخين أنه كان ابنه!! – وهي الطعنة التي انتزعت من صدره المتحشرج الذبيح صيحته المشهورة التي دلت على مبلغ ما أحسه من جحود، ويأس، وألم : «حتى أنت يا بروتس؟! »

وإذا كان الحادث قد فجع الرومان وروعهم، فكم بالأحرى كان تأثيره على كليوباترا!.. ماذا يكون مصيرها ومصير ابنها « سيزارون »؟! يا له من مصير قاتم محفوف بالمكارة والأخطار أو، وبقيت الملكة

المفجوعة في روما حتى فضت وصية قيصر، وأعلنت على الملا، فإذا بها لصالح « أوكتافيوس ».. وليست لصالح ابنها « سيزارون » أهو ومن يدري؟ ربما تكون الوصية الحقيقية التي خطها قيصر بيده قد أعدمت.. ربما تكون «كالبورنيا » زوجة قيصر قد أعدمتها، من فرط غيرتها من كليوباترا وبغضها لها، وزورت هذه الوصية الأخرى بدلا منها!

وعادت كليوباترا إلى مصر، ناجية من ذلك البلد الأجنبي الذي يناسبها أهله العداء، ولا يضمرون لها غير الكراهية والبغضاء!

٤ - كليوباترا.. ومارك انطونيو

لم يكن في روما رجل يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه يوليوس قيصر، أو يحمل وحده الأعباء الحمام التي كان يحملها.. لذلك وزعت سلطاته على ثلاثة، هيم : « أوكتافيوس» و«ليبيسدس» و« مارك أنطونيو ».. ولم يكن من العسير أن يلاحظ، أن مارك أنطونيو هو أقوى الثلاثة، وأنه لن يمضي وقت طويل حتى « يبتلع » شريكيه!.. وكانت كليوباترا قد التقت بأنطونيو في روما، وسمعته يرثي يوليوس قيصر.. وسنرى كيف بدأت علاقتها به، وكيف دفعته إلى تحقيق الحلم الذي يداعبها منذ زمن بعيد، وهو توحيد الشرق والغرب في إمبراطورية واحدة!

وقد وصف « بلوتارك »، « مارك أنطونيو » بقوله : « كان رجلا وسيما جدا، ممشوق القامة، قوي البنية، مفتول الساعدين، منسق الشعر، حلو القسيمات، يشبه « هرقل » شبها عجيبا.. تنبعث من عينيه الضاحكتين ابتسامة ساحرة، ساخرة.. وكان موضع إعجاب السماء وذلك

الإعجاب الذي استغله إلى أبعد الحدود! - وكان شجاعا لا يقهر، ولد للحرب والنزال.. يتبسط مع جنوده ويعرف كيف يجتذبهم. وكانت فصاحته تحدث في الشعب تأثيرا أقوى مما كانت تحدثه عبارات قيصر المنمقة... وقد كان قيصر يعتبره خير ضباطه، وان أنكر منه جهله بالآداب العامة، وعدم تعففه عن ارتكاب أحقر مباذل الدعارة في أقذر الأمكنة، بلا حياء!.. فهو يسير في الطرقات مترنحا من السكر، ولا يزامل إلا الدهماء والرعاع. وقد وصفه « رينان » أدق وصف فقال : « كان أنطونيو « طفلا » جبارا، يستطيع أن يغزو العالم ويقهره، لكنه يعجز عن أن يقهر الثروة العابرة! ».. أما « بلوتارك » فقال عنه : « كان أنطونيو» مزيجا من النبل والسفالة.. يضطلع بأشرف الأعمال ويرتكب أدنا الجرائم، في آن واحد! »

وكانت زوجته « فولفيا » شديدة الذكاء، واسعة الحيلة، ومع ذلك لم تسلم من شروره.. كان يسيء إلى الجماهير فتثور عليه، لكنه لا يلبث أن يهدئ من ثائرتها، بسحر ساحر!

والآن.. كيف التقى مارك أنطونيو بكليوباترا؟

بينما كان معسكرا في جزيرة صقلية، يحيط به الملوك والأمراء، أرسل الى ملكة مصر يدعوها ليستجوبها عن علاقتها بيوليوس قيصر، ويتهمها بأنها بمسلكها الشائن معه، عاونت على اغتياله

فلما وصلت الدعوة إلى كليوباترا، لم تتعجل السفر.. أنها تثق في قدرتها وفتنتها وسحرها، ولا ترى في دعوة أنطونيو إياها - بحجة

استجوابها – إلا حيلة يبقى من ورائها أن يراها!.

وهكذا، في غير ما عجلة، أعدت كليوباترا عدتها للذهاب إليه.. وقد وصف المؤرخون والكتاب والشعراء – وعلى رأسهم باوتارك وشكسبير – الموكب التاريخي الذي هف بكليوباترا وهي ذاهبة للقاء مارك انطونيو.. لقد أبحرت في س فينة ذات مجاذيف من ذهب، وأشرعة من دمقس! وكانت المجاذيف تتحرك على أنغام الموسيقي الساحرة، وقد اضطجعت كليوباترا مثقلة بجواهرها تحت خيمة موشاة بالذهب، تحيط بها الحور والولدان.. وكان عبير العطور ينبعث من السفينة فيسكر الموجع، وتنتشي به أعطافه.... فلما وصل الموكب إلى شاطئ صقلية، اجتذبت روعته الجماهير، فاجتمعت في مواجهته وراحت تحيي ملكة مصر... حتى حاشية أنطونيو نسيت واجبها، وتركته بمفرده، لترى الملكة القادمة في موكب لم تر مثله عين، ولم تسمع بمثله أذن!

وأرسل أنطونيو إليها، يدعوها للعشاء.. لكنها لم تحفل بدعوته! أمثلها تذهب إليه؟!.. كلا! بل هو الذي يجيء إليها!.. وقد كان لها ما أرادت، جاء إليها في سفينتها..

ولقد عرفت كليوباترا بذكائها الوقاد وقوة ملاحظتها، نقطة الضعف في كل من الرجلين – قيصر وأنطونيو – فضربت لكل منهما على الوتر الحساس : عرفت في الأول الثبات والعمق والكياسة، وعرفت في الثاني أنه رجل سطحى تستهويه المظاهر البراقة، فاجتذبته بالأسلوب الذي يرضيه!.. كان لقيصر ذكاء أهل الفنون وذوقهم، فعاشت في ج وه..

وكان في أنطونيو خلق الأوباش فسايرته، وزاملت من كان يحب مزاملتهم من الرعاع، حتى تقبض على ناصيته فلا يفلت منها، ولا يجد عليها مأخذا واحدا في حبها وولائها له!

لكنها في الموت، كانت الملكة التي تليق بقيصر.. بينما كان أنطونيو في موته هباء لا قيمة له.. ولو أننا حذفنا من حياته أن كليوباترا دخلت فيها، لما كان فيها ما يستحق الالتفات أو التسجيل

تناول أنطونيو العشاء في سفينة كليوباترا، تحيط به المشاعل وأناشيد القيان، وكانت هي تغازله وتعابثه في دلال وخيلاء، وتدنيه وتقصيه في ترفع الملكات!.. وقضى الأمر، ونفذت سهام كليوباترا في قلب ((الطفل)) الكبير.. فإذا هي تعود به إلى الإسكندرية، وتدخل به قصر لوتشيا – نفس القصر الذي كانت قد دخلته لمقابلة قيصر ملفوفة في بساط! – تدخله بأنطونيو عبدا، متيما، خاضعا!

وحاصرته بمظاهر الترف، والموائد المتخمة بأشهى المأكولات – إذ كان نهما!– فأنسته كل شيء : وطنه إيطاليا، وشريكه الذي يتربص له « أوكتافيوس »، وزوجته القوية الذكية (فولفيا).. والدنيا بما فيها ومن فيها!

أما هي، فلم تنس حلمها الجميل : توحيد الشرق والغرب في إمبراطورية واحدة، تدين لها بالطاعة والولاء!.. ولم تنس العقبة التي تعترض طريقها إلى تحقيقه، أنها « أوكتافيوس ».. مغتصب المنصب الذي كان سيشغله ابنها «سيزارون »!

ولكن فجأة، ساءت الأحوال : لقد حاولت « فولفيا » زوجة أنطونيو أن تؤلب ايطاليا ضد «أوكتافيوس » منافس زوجها.. فلما فشلت، هربت... وفي الوقت نفسه هبت فرقتان من جيش أنطونيو المرابط في سوريا تهددان بالعصيان، فوجب على أنطونيو أن يخرج من « جنته » ليواجه الخطر المزدوج.. فأبحر من الإسكندرية، تاركا كليوباترا تحمل في أحشائها التوأمين اللذين وضعتهما بعد حين : التوأم الذكر « ألكسندر هيلوس » – أي الشمس – والأنثى التي سمتها كليوباترا « سيلينى »، أي القمر.. لقد أنجبت من أنطونيو الشمس والقمر، مجتمعين!

وطالت فرقة الحبيبين.. أربع سنوات!.. وكان أنطونيو بطبيعته ممن يتأثرون بالمؤثرات الوقتية، فما كاد يبتعد عن كليوباترا حتى شغلته المؤثرات الجديدة : أن زوجته المزعجة « فولفيا » تنفع عليه عيشه بما تسميه له من متاعب.. و« أوكتافيوس » ينافسه ويتربص له ويقض مضجعه!وه فلماذا لا يتخلص من « فولفيا »، ويسالم أوكتافيوس، فينجو بنفسيه من المنغصان والمتاعب جميعا؟!.. لماذا لا يقتسم العالم مع « أوكتافيوس »، فيترك له حكم الغرب، وينفرد هو بحكم الشرق؟!.. فليمهد لتنفيذ الأمرين

معا، بالزواج من « أوكتافيا »، أخت « أوكتافيوس »!.. وكانت (أوكتافيا » امرأة شريفة عفيفة – بالرغم من الفساد الذي استشرى في روما – وكانت تفوق كليوباترا جمالا وشبابا، إلى جانب أنها كانت شديدة الذكاء ايفا، واسعة الإدراك..

واستقبلت كليوباترا نبأ الزواج أسوا استقبال! كان بمثابة خيانة لها، بل كان فيه القضاء أيضا على أمنيته ا السياسية الضخمة... وفي هذه الأثناء تتابعت الأحداث بسرعة، فلم البث « أوكتافيوس » أن هزم في حرب نشبت بينه وبين « سكتوس » ابن بومبى ».. وكان أنطونيو خلال هذه الحرب يمد « أوكتافيوس » بالأسلحة ومعدات القتال.. فعجبت كليوباترا من موقفه هذا، وقد كان في وسعه أن ينتهز الفرصة الذهبية ليقضي على منافسه، وينفرد بحكم العالم!.. أن زواجه من « أوكتافيا » هو السبب، فقد جعله يحالف أخاها بدلا من أن يحاربه!

لكن الطفل الكبير سرعان ما مل عشرة أوكتافيا.. أنها برغم شبابها وجمالها لم تكن تلهب إحساسه وتثير غريزته كما كانت تفعل كليوباترا... وعاوده الحنين إلى ملكة. مهر، فأرسل (أوكتافيا) إلى مكان قصي في ايطاليا، وأرسل يستدعي « كليوباترا » من جديد!.. لقد مل « الطفل الكبير » لعبته الجديدة، وأخذ يصيح طالبا لعبته القديمة!.. فهل تقبل كليوباترا ضراعته وتوسلاته؟.. لقد فعلت!.. قبلت « كليوباترا » – التي لم تكن تتورع أو تترفع عن شيء في سبيل تحقيق حلمها السياسي الكبير – ضراعته وتوسلاته، حرصا منها على إحياء هذا الحلم، ورغبة في تحقيقه... ومن ثم أبحرت إلى سوريا – وكان أنطونيو قد سبقها إليها = فجمع الله الشتيتين مرة أخرى!

وهناك، في « أنتيوك »، أملت عليه شروطها، وجعلت قبول هذه الشروط ثمنا لصفحها وغفرانها : وكان أول ما اشترطته أن يطلق « أوكتافيا ».. وثانيهما أن يتزوجها هي، وفقا للطقوس المصرية.. وثالثها أن

يعترف بابنها من قيصر « سيزارون، وارثا شرعيا للعرش... ورابعها أن يمنحها جميع السلطات التي كانت للملوك الفراعنة الأقدمين.. وخامسها أن يتحالف معها لتكوين جبهة ضد « أوكتافيوس ». واعتبرت الشرط الأخير أهم شروطها!

ووعدها أنطونيو بتحقيق هذه الشروط.. وأخذ في أعداد حملة حربية جديدة على أعدائه الألداء « البارثين » فحاولت أن تصرفه عن ذلك، ليوجه كل قوته لمحاربة عدوهما المشترك « أوكتافيوس ».. فلما فشلت المحاولة، تركته وعادت إلى مصر، من طريق فلسطين..

وانتصر أنطونيو على أعدائه.. ثم سافر إلى الإسكندرية، حيث احتفل بانتصاره، في مهرجانات رائعة.. ولكن بالرغم من انتصاره، كان مركزه في روما يتدهور تدهورا سريعا، بسبب خضوعه لهذه المصرية التي استحوذت عليه، وأبقته بجوارها.. بينما كان « أوكتافيوس »، يزداد نفوذا وقوة.. حتى غدت المبارزة بين الرجلين أمرا ليس عنه مجيد .. وأية مبارزة! أنها لم تكن مصارعة بين رجلين، بل كانت معركة رهيبة بين نصفي العالم.. بين الشرق والغرب!

٥- نهاية كليوباترا

وجمع أنطونيو وكليوباترا جيوشهما البرية والبحرية في « ايفيس » فكان عرض هذه الجيوش فرصة جديدة لأعياد زاخرة زاهرة.. وكان أنطونيو قد وصل إلى حالة من الانهيار العصبي يرثى لها، من شدة إفراطه في اللهو والمجون.. فهو يضحك ويمكى... ويثور ويهدأ! وتخور قواه

وييأس من الدنيا بأسا مطبقا، وفجأة تتدفق فيه الحماسة والفتوة!.. وكان في هذه الأثناء قد طلق زوجته « أوكتافيا ».. أخت أوكتافيوس – تنفيذا لشرط من الشروط التي أملتها عليه كليوباترا! فأثار ذلك سخط « أوكتافيوس » وروما ما.

وأخيرا دارت رحى معركة « أكتيوم » التاريخية، التي كانت نقطة تحول في تاريخ العالم القديم، فاندحر فيها أنطونيو، وانتصر عليه أوكتافيوس انتصارا ساحقا!.. أما كليوباترا، فقد هربت ناجية بأسطولها وكنوزها الثمينة، تاركة أنطونيو يواجه مصيره المحتوم..

ويطيب لبعض المؤرخين والكتاب أن ينعوا على كليوباترا هربها من معركة " اكتيوم ".. ويصفوها بالجبن والنذالة.. ولكن، ماذا كانت تستطيع أن تفعل، وقد رأت الموت يطبق عليها من كل جانب!؟.. الواقع أن الذي ينطبق عليه وصف النذالة هو أنطونيو، فانه ما كاد يراها تبتعد عنه، حتى ترك المعركة المحتدمة، والجنود الذين يقاتلون من أجله، وأسرع خلفها، تاركا الدار تنهي من بناها، وهو ترك الجيش من غير قائد، ليلحق بالمرأة التي يحبها... وظل جيشه يقاتل سبعة أيام، قتال المستميت، وأخيرا اضطر إلى التسليم!

ولو كانت كليوباترا امرأة عادية، لسرها أن يترك القائد ميدان القتال ليجرى وراءها.. لكنها كانت تقدر الرجال بقدر أعمال البطولة التي يأتونها.. ومن هنا ازدرت أنطونيو لمسلكه الشائن، ورفضت أن تقابله.. فظل يرسل الشفعاء إليها ثلاثة أيام، حتى قبلت أخيرا أن يمثل بين يديها

كما يمثل العيد. الذليل بين يدي مولاه!

وبينما انصرفت كليوباترا في الأيام التالية إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه لم ينصرف أنطونيو عن موبقاته، فعاد إلى فسفه وفجوره واستهتاره، ومزاملته للأوباش!.. بل أن حكمة كليوباترا جعلتها تحول أسطولها المحمل بكنوزها، إلى البحر الأحمر.. حتى إذا ما دخل أوكتافيوس الإسكندرية بجيوشه، لم تسقط هذه الكنوز في يديه.. وفي الوقت نفسه أخذن تفاوض "أوكتافيوس"، عساها تجد مخرجا لنفسها وعرشها وأولادها – وبينهم ثلاثة من أنطونيو!. فبعث "أوكتافيوس" إليها رسولا يبلغها أنه يطلب منها أن تسلمه أنطونيو حيا؟.. فإذا تعذر عليه سه ذلك، فلنفض عليه، بأي طريقة.. وأنه، في نظير ذلك، يمنحها حريتها كاملة ، ويتركها ملكة مصر!

فتح باب النجاة أمام كليوباترا، لكنها أنفت أن تشتري النجاة بالخسة والضعة.. وردت على « أوكتافيوس » ردها التاريخي الذي قالت فيه : «انك تلح في طابا رأس أنطونيو.. أن رأسه لا يساوي الآن شيئا كثيرا ولكنني آنفا من أن أكون جلادته، فأسلمه إلى أيدي أعدائه... فإذا كان هذا المطلب عزيزا عليك، وإذا كنت تواقا إلى تحقيقه، فما عليك إلا أن تدل أسوار المدينة وتدخلها غازيا فاتها، وإذ ذاك وه نجه رأس أنطونيو بين يديك! »

وهذا ما فعله « أوكتافيوس ».. أبحر بجيشه إلى مصر لمنازلة أنطونيو ،. فأفاق أنطونيو قليلا من سكرة الشراب والعبث والمجون..

والتحم الجيشان، فانتصر أنطونيو في البداية ولكنه كان انتصارا سطحيا، بدا كالسراب ثم اختفى، فقد هزمه « أوكتافيوس » في النهاية شر هزيمة، فولى الإدبار باحثا عن كليوباترا!.. وكانت هي مختفية في مخبأ تحت الأرض، يرجحون أنه معبد « ايزيس ».. فلما لم يعثر عليها، ظنها انتحرت.. فانتحر!

وعشر أوكتافيوس على مخبأ كليوباترا، لكنه أمر جنوده بألا يمسوها بأذى.. ثم زارها في مخبئها، فأدهشه مرآها! أن بريق عينيها ما يزال يسلب اللب، ويزازل أركان القلب! وصوتها الساحر ما يزال على سحره! أتراها تعيد تمثيل الرواية معه؟!.. الرواية التي مثلتها مع قيصر، ثم مع مارك أنطونيو؟!.. لكنها الآن في الثامنة والثلاثين، وأوكتافيوس رجل وقور، لا يستهويه الإغراء، ولا يذرع العالم جريا وراء النساء!.. ولقد أدركت هي من النظرة الأولى أنه يختلف عن صاحبيه، فأخذت توصيه خيرا بمصر.. وبأولادها.. وكشفت له عن مخابئ كنوزها – فقد، كانت تعلم أن الوصول إليها هو أمنيته الكبرى! لكنها كتمت عنه أمر بعضها، فإذا أحد أتباعها بشي بمكانها لاوكتافيوس.. فيزداد موقف كليوباترا سوءا وحرجا! وفرض عليها « أوكتافيوس » حراسة شديدة.. لكنها استطاعت أن تستميل إليها حارسا اسمه « دولابلا »!.. فلما سقط في شرك غرامها) أمرته بأن يتجسس على قائده.. لتعرف ماذا ينوي أن يصنع بها؟

وجاءها « دولابلا » بالنبأ المحزن : أن « أوكتافيوس » اعتزم أن يأخذها معه حين يعود إلى روما، ليعرفها هناك على الشعب – في المهرجانات التي ستقام احتفالا بانتصاره! – كما يعرض الأسرى، بكامل

أبهتها، وحللها، وجواهرها!

يا للهول!.. أتعيش كليوباترا لترى ذلك اليوم، وتقاسي ذلك الهوان؟! لا.. بل أن الموت لأرحم وأهون!

وذات يوم.. لبست الملكة ثيابها الرسمية، وتحلت بجواهرها، وتزينت أبدع زينة.. ثم أمرت فجاءوا لها بأفعى في سلة من التين، فأخرجت الأفعى ووضعتها على ثديها الجميل، فعفته بنابها المسموم.. وماتت على الفور! ماتت كريمة عزيزة، دون أن تمتد إلى جمالها الرائع بد، أو يعدو على كرامتها عدو شامت!

وما كاد نبأ موتها يصل إلى أوكتافيوس، حتى سارع إلى ابنه « سيزارون » فقتله! وقام نفسه خليفة لقيصر.. وجلس على عرش مصر، ملكا متوجا وهنا يحدثنا التاريخ عن نبل « اوكتافيا »، أخت « أوكتافيوس » التي طلقها أنطونيو امتثالا لأمر كليوباترا!.. فلقد سمت بنفسها على الضغائن والأحقاد، فسارعت إلى أولاد كليوباترا من أنطونيو – زوجها القادر! – وآوتهم في بيتها، وأولتهم حنانها، وأشرفت على تربيتهم في عطف سابغ رفيع!

٦- مأساة شكسبير

وأخيرا.. ماذا صنع شكسبير، بهذه المأساة التاريخية الضخمة التي نسجت السياسة والحرب والحب خيوطها؟ هذه المأساة التي اصطرع فيها الشرق والغرب صراعا رهيبا.. لقد سطا شكسبير على بلوتارك، فاغتصب منه معظم المواقف التي صورها!.. لا، بل سطا على « ألفاظ

)) بعينها مما كتب باوتارك.. ثم لم يقنع بهذا، انه يريد أن يدخل أنفه في المأساة الكبرى، فماذا يصنع؟.. آن بلوتارك لم يبخس كليوباترا حقها من التبجيل، بالرغم مما كال لها من اتهامات.. وإذا بشكسبير ينزع التاج من على رأس الملكة، ويصورها في صورة المرأة المستهترة الخليعة التي لا هم لها غير إشباع شهوتها إلى الرجال.. في الوقت الذي يصور لنا فيه أنطونيو في صورة الرجل « الفاضل » الذي جنت كليوباترا على أخلاقه وصفاته السامية، ودكت صرحها دكا وولم يعد شكسبير إلى كليوباترا تاجها وجلالها إلا في مشهد موتها، فقد صورها ملكة في مماتها.. ولم يصورها ملكة في حياتها!

وقد بدا شكسبير مأساته بإظهار كليوباترا في ثوب المرأة التي بدأت شيخ، عندما ذهبت للقاء أنطونيو في (ميد توس) مع أنها كانت وقتئذ في الخامسة والعشرين! فلقد ماتت بعد أربعة عشر عاما في التاسعة والثلاثين! – وفي ذلك اللقاء التاريخي العجيب، أجرى شكسبير على لسانها كلاما لا يجرى إلا على السنة العجائز!.. بل لقد وصف المؤرخ «أونابارنوس» كليوباترا عند موتها، في صورة لزيد « نضارة » عما وصفها به شكسبير وهي في أوج شبابها!.. إذ قال الأول يصفها في أيامها الأخيرة : « أن تقدمها في السن لم يذبل نضارة الزهرة التي التقت فيها أكبر مجموعة من الأضداد وبه والتي ظلت، مع ذلك، المرأة المعبودة المشتهاة!،، لقد امتازت عن بنات جنسها بأن غيرها من الجميلات، إلا منحن الرجال أنفسهن، شبعوا وانصرفوا عنهن!.. أما هي، فكانت كلما ازدادن سخاء، ازداد الرجال جوعا!.. بل أن الصفات الحقيرة في غيرها

من النساء، كانت تنقلب جميلة نبيلة فيها!.. ألم يباركها رجال الدين في موتها، برغم انتحارها عامدة؟!

ومن الإنصاف لكليوباترا أن نعترف لها بأنها كانت ذات ذوق فني رائع، وإحساس مرهف..

فلنسمع وصفها للموسيقى : « أن الموسيقى هي غذاؤنا نحن الذين نعيش بالحب! ».. وفي الوقت نفسه، كانت لها شخصية المرأة التي شفق كبائي قوادها من غضبها وعبوسها.. ولم تكن تمجد في الرجال إلا قدرتهم على الإتيان بجلائل الأعمال.. كانت تعشق فيهم الفروسية في البطولة، والقدرة على الغزو والنضال!.. وكانت تستقر أنطونيو كلما أتي شملا لا يليق.. كانت تحب أن ترى فيه الرجل المثالي، والبطل المثالية وبهذا سمت على غيرها من النساء!

ومن العجيب، أن أنطونيو كان في أيامه الأخيرة يكيل لها السباب ولا كان يصفها بأنها المصرية الوضيعة!.. وأنها أكبر عادي يمشي على الأرض!.. وأنها العجوز الذابلة الآفلة!.. أنها السبب في تقويض دعائم متجده وتشويه سمعته! وهو القائد الذي نراء الميدان، أثناء احتدام دكوكة « أكتنيوم » الفاصلة، ليلحق بها!.. كالكلب الذي يشم رائحة اللحم فيجري نحوه! والواقع أن كليوباترا أرادت أن تجعل من أنطونيو وهذا الطفل الكبير... سيدا على العالمين، لكن أخلاقه هي التي حطمته وأهلكته!.. بل أنها، بعد أن عرفت قيصر، أرادت أن تجعل من أنطونيو صنوا له، وبذلت في سبيل ذلك جهود الجبابرة، لكنها فشلت.. كانت

ضعه أخلاقه وصفاته أقوى من كل محاولاتها!

وبالرغم من أن شكسبير عبث بكثير من الحقائق في مسرحيته «كليوباترا ومارك أنطونيو».. فإن هذه المأساة لا تزال أروع ما كتب عن الفساد والشهوات والدعارة : كيف تحطم الرجال، وتدحر الشعوب، وتقضي على الدول... وبذلك وضع شكسبير، كليوباترا ومارك أنطونيو، في نفس المكان الذي وضع فيه دانتي وبودلير، أولئك الذين صبت عليهم اللعنات في قراره الجحيم!

كليوباترا.. الحب المجنون

أندريه كاستيلو

كثيرا ما اتهمت المرأة بأنها أقل ذكاء من الرجل، وقد جهل أصحاب ذلك الاعتقاد هذه الحقيقة : فهي قد حرمت دائما من استعمال ذكائها الذي قد يكون أوفر. حرمت من ذلك في العصور البدائية، يوم أن كان الرجل يسوقها قطعانا كالبقر والنعاج. وحرمت منه في العصور الوسطى، يوم أن كان المحارب في الغرب بمنطقها « بحزام العفة » كلما خرج إلى غزوة، ليشعرها بأنها أمة مملوكة لا خيار لها في نفسها، ويوم أن كان الخصي في الشرق يسخرها في تصور السلاطين لمآربه ويفرض عليها أوامره، فلا تجرؤ على الاعتراض بشيء. وحتى في العصور الحديثة بني كثيرون يعتقدون أن المرأة. خلقت اتل من الرجل في كل شيء. وهم إذ يصرون على هذا الرأي يتجاهلون الواقع المائل، فقد أثبتت المرأة في هذا العصر أنها لا تقل في كل المجالات فكرا ورأيا وعزما عن الرجل، بل أنها تتفوق عليه أحيانا.

فإذا رجعنا إلى التاريخ، قديمه وحديثه، وجدنا أن المرأة كانت تكافح دائما للخروج من ط وق العبودية. وفي ذلك الكفاح الذي لم يتوقف منذ أن أدركت حقيقة وضعها تجلت شخصيات نسائية عظيمة فاقت في الذكاء كبار مفكري زمنها.

ومن أروع قصص الذكاء النسائي قصة كليوباترا التي سجل وقائعها المؤرخ الإغريقي « بلو تارك » وتناقلها عنه كتاب الغرب فكانت مصدرا لإلهامهم بقصص كثيرة وتمثيليات رائعة. فقد استطاعت كليوباترا أن تغزو قلب عاهل بعد آخر من أباطرة الرومان، يوم أن كان للإمبراطورية الرومانية شأنها في السيطرة على العالم. وقد فعلت ذلك معتمدة على ذكائها الخارق، وفعلته بأسلوب من التحدي والإصرار على أن تكون دائما منتصرة، وحتى عندما خانها الحظ بانقلاب ميزان السياسة وسقوط انطونيو الذي كانت حالفته وتزوجته، فأنها أبت ألا أن تخرج من هذا العالم منتصرة ففضلت الانتحار.

أن اندريه كاستيلو بعرض هنا صورة موجزة من حياة تلك المرأة الذكية التي خلد ذكرها التاريخ.

ملكة في سجادة!

أرخى الليل سدوله، وكان ذلك في عام ٤٨ قبل الميلاد، وتقدم رجل يحمل شيئا على كتفه نحو باب القصر الملكي بمدينة الإسكندرية، قصر الملك الشاب بطليموس الرابع عشر، الذي حل فيه يوليوس قيصر قبل أيام. فني ذلك الوقت لم تعد مصر التي كانت يوما تحكم العالم لم تعد أكثر من إقليم روماني، ومع ذلك فقد استطاعت أن تحتفظ بملوكها وقوانينها وحكوماتها الداخلية.

كان الرجل يدعى « ابولو دور الصقلي »، وكان يحمل سجادة مطوية تال انه جاء بها هدية إلى قيصر. فلما سمح له الجند بالمثول بين

يديه وضعها على الأرض برفق وفك الأربطة التي تمسك أطرافها ثم أخذ يفردها بعناية، وحينئذ لم يتمالك العاهل الروماني نفسه من فرط الدهشة. فقد انتصبت من قلب السجادة صبية قصيرة القامة متشعثة الشعر تبدو في العشرين، ثم وقفت جانبا في هدوء وقالت في ابتسامة رقيقة :

إنني كليوباترا!

ولم يكن هناك داع للتساؤل عن السبب في دخول ملكة مصر على قيصر بتلك الطريقة الغريبة. فمنذ ثلاث سنوات كانت كليوباترا السابعة تحكم مصر مع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر، وكان يجب أن تتزوج منه حسب العرف الموروث عن الفراعنة، وهو وجوب الاحتفاظ بالدم الملكي نقيا في محيط الأسرة، غير أن التفاهم انعدم بينهما، وقد أدى تفاقم الخلاف بينهما إلى انقسام البلاد والجيش إلى فريقين، أحدهما يؤيد كليوباترا والثاني يساند بطليموس. وهذا ما دعا يوليوس قيصر إلي القدوم إلى مصر، كحكم، بأمل أن يستطيع التوفيق بين الزوجين المتخاصمين

وكان فور وصوله قد أرسل في طلب كليوباترا الصغيرة، غير أنها لم تكن مطمئنة إلى دخول قصرها القديم، فقد كانت تخشى أن يفتك بها أحد الموالين لزوجها. وهو أمر كان شائعا في تلك الأيام ولكن شكرا لتلك السجادة النفيسة التي تظاهر ابولو دور بأنه راغب في أن يهديها إلى تيسر. بل شكرا لتلك الخطة البارعة التي وضعتها كليوباترا نفسها! فها هي تدخل القصر بغي أن تتعرض لخطر. أما غرضها فقد كان غزو

قلب سيد العالم الروماني لتستطيع أن تستبعد أخيها من الحكم

قيصر يستسلم سريعا

أخذ قيصر يتأمل الملكة الصغيرة في إعجاب، وليس من الممكن إعطاء فكرة صادقة عن صفات الجمال التي تميزت بها تلك المرأة التي عمت شهرتها الآفاق في العالم القديم. فهل كانت ذات بشرة بيضاء وعينين زرقاوين باعتبار أنها انحدرت من أصل مقدوني؟.. من الصعب القطع بذلك، فقد علمنا أن أجدادها البطالمة عاشوا في مصر فترة طويلة، فتشربوا من جوها واتبعوا عاداتها واختلطت دماؤهم بدماء ملوكها. وإنما الأرجح أنها كانت ذات بشرة س مراء عنبرية وعينين سوداوين وملامح اقرب إلى سمات الإغريق. بل ربما كانت اقرب شبها إلى الملكة «نفرتيتي»، فقد كانت تتبع أساليبها في التجمل والتزين ب وحتى في الزي.

على كل حال، لا نستطيع أن نتجاهل شيئا هاما هو في الواقع الأساس الذي قامت عليه تلك الأسطورة البديعة عن الملكة ذات العاطفة الملتهبة، التي عاشت قبل الني عام، وهو أنها كانت تتميز بقدر كبير من الجانبية النسائية أو ما اصطلح على تسميته «السيكس ابيل»، كما لا نستطيع أن نتجاهل أن نظرة من عينيها كانت كافية للأسر والإخضاع. أما جسدها فكان بديع التكوين، ابرز سماته انف أقنى به بعض النتوء.

كان قيصر يومها في الثالثة والخمسين. وإذا كان في ذلك الوقت

قد بدا يحس فتور الكهولة، بعد حياة كثر فيها الغزو وتتابعت الفتوحات، فقد جاءته تلك الصبية الحسناء ملفوفة في طنفسة بديعة لتبعث فيه لواعج الصبا وتشعل ما خمد من نيران الحب.

وحقا أن وجهه قد تأثر واسمر من جراء حياة العراء التي كان يقضيها في الخيام أثناء غزواته كما أن جسمه قد ضمر بسبب اندفاعه في تيار اللهو كلما فرغ من موقعة، غير أن ذلك لم يغير كثيرا من سمات الجاذبية التي تميز بها، ولم يضعف كثيرا من القوة البدنية التي كانت في أساس تكوينه،

ثم انه يسمى قيصر!

وحينما رأت كليوباترا أن كل ما فعلته صادف هوى في نفس العاهل الروماني أدركت أنها لم تعد في حاجة إلى توجيه الرجاء. ويستطيع المرء أن يتصور علامات الكدر واليأس التي بدت على وجه بطليموس الصغير حينما شاهد في اليوم التالي شقيقته – وكان يعتقد أنها في سوريا – تقيم في قصره.. بجانب يوليوس قيصر! فأي أمل يستطيع المسكين أن يشعر به بعد ذلك؟

كليوباترا تنفرد بالحكم

لم تكن كليوباترا في حاجة إلى بذل جهد كبير للوصول إلى هدفها.. فبفعل سحرها ورشاقتها استطاعت أن تستأثر بقلب قيصر وتنسيه كل شيء. لدرجة انه من فرط كلنه بها تخلف عن العودة إلى روما التعقب بعض المنشقين على الحكم في مدينة بومبي. بل فضل أن يعيش

في الإسكندرية معيشة زوجية مع هذه الساحرة المثيرة المتعبة، كليوباترا، التي لم تلبث أن جاءت منه بولد سمي قيصرون – بطليموس.

في ذلك الوقت لم تكن ممر ابتلعت تماما في بطن الإمبراطورية الرومانية فاستطاعت كليوباترا أن تنفرد بالحكم وان تدبر الأمور بنفسها كملكة مستقلة. ثم لم يلبث قيصر آن راى نفسه مضطرا إلى العودة إلى روما بحكم الظروف، ولا راى انه لا يستطيع فراق هذه الحبيبة التي استطاعت أن تأسر لبه طلب إليها أن تلحق به مع قيصرون. ووصلت كليوباترا إلي روما، فأفرد لها بيتا خلويا على ضفة نهر التيبر، واخذ يقضي بجانبها من الوقت أكثر مما يقضيه بجانب زوجته كاليبورينا. ودهش الرومانيون من هذا التصرف، فرأي آن يظهر لهم أن كليوباترا تمتاز على سائر البشر، فهي لم ترض عن تشبيهها بواحدة من الآلهة، إذ أنها تمثل ايزيس وافروديت على الأرض!

ولم يكتف بالقول، بل أمر بتشييد معبد كبير باسم جدتها فينوس، حيث أقيم لكيلوباترا تمثال جميل تفنن في نحته المثال الشهير اركاسيلاس.

كليوباترا صاحبة الفضل في وضع التقويم الشمسي

وذهلت روما، غير أن هذا الذهول لم يلبث أن تحول إلي إعجاب عندما علم الرومانيون أن قيصر – بناء على نصيحة كليوباترا – قد استدعى فلكيين مصريين من القصر الملكي بالإسكندرية التعديل التقويم الزمني على أساس التقديرات التي وصل إليها البحار الإغريقي يودوكس،

أول من نجح في الطواف حول القارة الأفريقية.

كان هذا مولد النظام الذي أطلق يوليوس قيصر عليه اسمه، وقد بقي شهر – يوليو – يحمل هذا الاسم، وهو الذي يشكل القاعدة التي يقوم عليها التقويم الغربي حتى اليوم.

فالفضل في الحقيقة يرجع إلى كليوباترا في ضبط أيام السنة في حدود ثلاثمائة وخمسة وستين يوما، وثلاثمائة وستة وستين كل أربع سنوات، وهو ما يتوافق مع دورة الشمس بالنسبة للأرض.

كان قيصر يعتبر نفسه الرئيس الروحي الأعلى، والقائد الذي تصل كلمته إلى الكواكب. فجعل من قيصرون ملكا غير متوج لمصر.. فقبل رحيل كليوباترا عن مصر كانت تزوجت من شقيق آخر لها دعي بطليموس الخامس عشر، غير انه اختفى ولم يعثر له على اثر. وقد أمر قيصر بإعداد عرش لقيصرون من الذهب وضع في مجلس « السينات » وهو مجلس الشيوخ الروماني. كما أمر بنصب تمثال في معبد « كوبر ينوس » نقشت تحته هذه العبارة « إلى الإله الخالد »

قىصر يقع تحت خناجر المتآمرين

وفي ١٥ مارس مشى قيصر إلى مجلس السينات مشية القائد المظفر، ولم يكن يعلم انه يمشي إلى الموت، فقد كانت خناجر المتآمرين في انتظاره. وكان بروتوس وكاسيوس يعتقد أن أنهما بالقضاء على عشيق كليوباترا يستطيعان إعادة بناء الجمهورية الرومانية.

في تلك الليلة وقفت كليوباترا في حديقة قصرها تبكي وتنتحب حتى كادت أن تذيب نفسها. ولكنها عرفت سريعا كيف تفيق لنفسها وتتدبر أمرها. فلم تمض ثلاثة أسابيع على إحراق جثة قيصر في « الفورم » حتى كانت سفينتها تلقي مراسيها على شاطئ الإسكندرية.

كليوباترا تشرع في غزوة جديدة

ويمضي الزمن. ثم تبدأ قصة أخرى من غراميات العالم القديم!

فعلى شاطئ « طارس » التي تقع على حدود « سيدنوس » (طرسوس اليوم) فتح أهالي المدينة عيونهم على منظر لم تصدقه عقولهم. فقد رأوا سفينة جميلة تتهادى نحو شاطئهم وقد فردت شراعاتها الأرجوانية. فإذا دققوا النظر رأوا منظرا عجيبا. ففي مؤخرة السفينة قامت مظلة كبيرة في شكل رأس فيل طليت بالذهب الوهاج، ومن تحتها جلس ربان السفينة ومساعدوه تحيط بهم حوريات أمسكن بالقيثارات والصفارات والدفوف.. فخرجت أنغامهن متوافقة مع حركة المقاذيف المطوقة بالفضة!

– أنها كليوباترا.. بلي هي – كليوباترا!

هكذا صاح المشاهدون. فقد كانوا يعلمون أن مثل هذه السفينة ذات الأضواء الذهبية والأنغام الشجية لا يمكن أن تكون إلا في حوزة ملكة مصر المترفة.

كانت الملكة تقف تحت مظلة أخرى مزركشة بالذهب، وقد ارتدت

ملابس – أفروديت –، ومن حولها حاشية من الفتيات من جنسيات مختلفة، ثم صغيرات في زي كيوبيد يروحن عليها بمراوح كبيرة من ريش النعام.

هكذا استعدت كليوباترا لغزو قلب انطونيو الذي انتقم لقيصر، فإذا ما عقد التحالف الثلاثي بينه وبين اوكتافيوس وليبيدوس كان من نصيبه الشرق، وفي مقدمته مصر، طبعا.

وكان واضحا لم اختارت كليوباترا أن تبدو في زي افروديت، سيدة البحار والهة الحب والجمال عند الإغريق، فالواقع أن الملكة لم تر داعيا لإخفاء أغراضها.

وما من شك في أن انطونيو مع قوة عضلاته لم يكن بالوزن الذي يمكنه من منازلة تلك المثيرة المتعبة صاحبة الأعوام السبعة والعشرين، كليوباترا. فقد بدا أمامها كالدب الجريح، فلم تجد صعوبة في صنعه من جديد، كما تريد.

والواقع أن هذا «الطفل العملاق» – كما نعته رينان – لم يكن فقط أسلوبا «لباخوس » تجسد في شكل إنسان، ولا مصارعا في المواسم بين نوعين من جيد الخمر أو لونين من شهي الطعام، حيث كان يستطيع أن يستعمل الذكاء الذي يشع من رأسه المزدوج، بل كان أيضا قائدا بارعا استطاع أن يستعيد جنوده بكرمه وإحسانه والفته. وأخيرا، وهو ما كان جوهريا بالنسبة لكليوباترا – والقول هنا لبلو تارك – فأنه «لم يفقد قلبه بالتكرار بقدر ما فقده بالرفاهية ».

رهان يتوج الغزوة بالانتصار

كانت كليوباترا قد علمت أن في انطونيو رغبة في الطعام وميلا للشراب، فأقامت على ظهر سفينتها وليمة باذخة جعلته ينسى كل الولائم التي حضرها والخمور التي ذاقها.

فحينما حضر هو وحاشيته وجدوا أقدامهم تغوص في بساط من الورود والرياحين. فإذا ما فرغوا من الطعام وهموا بالعودة أهديت إليهم الوسائد الثمينة التي جلسوا عليها والآنية الذهبية التي طعموا فيها. وحتى الأبسطة المطرزة بالذهب حملت إليهم حتى منازلهم.

ورأي انطونيو أن يدعوها إلى وليمة بدوره، وقد فعل ذلك وهو يعتزم أن يباري ملكة مصر ف ي كرمها الذي لم ير له مثيلا. ولكنه لم يستطع، بالرغم من أنه انفق ثروة كبيرة. فحينما حضرت كليوباترا ألقت نظرة على مظاهر الوليمة ثم هزت كتفيها استخفافا. فقد رأت الروماني عاجزا عن منافستها في ذلك. ولم تخف شعورها بل صارحته بأنه لا يستطيع مهما فعل أن يجاريها في هذا المضمار. ولكي تثبت ذلك عمليا أخبرته أنها تستطيع أن تنفق أضعاف ما انفق على وليمة تقتصر على شخصين. وقبل انطونيو الرهان.

فلما كان الغد دعت بكأس بها بعض الخل، ثم نزعت من أذنها لؤلؤة مفرطة الحجم وألقت بها في الكأس، فذابت اللؤلؤة بع د لحظات. وحينئذ رفعت كليوباترا الكأس إلى شفتيها وهي تنظر إلي أنطونيو في تهكم!

ورأت كليوباترا أنها نجحت في خطتها أكثر مما كانت تأمل، فكشفت لانطونيو عن ثروات مصر التي كانت لا تحصى في ذلك الوقت، ورأي القائد الروماني في تلك الثروات ما يستطيع الاعتماد عليه في كفاحه ضد التحالف الثلاثي في روما. فلم يتردد حينما دعته كليوباترا إلى اللحاق بها في الإسكندرية. وهناك بدا له كل شيء عجيبا مدهشا، بل ان المدينة بدت له وكأنما هي تنطق كلها باسمه!

ومن الأنصاف أن نقول أن انطونيو وجد نفسه يتعامل مع شريكة على قدر كبير من الذكاء والمقدرة. فقد احتفظت كليوباترا برباطة جأشها ولم تسمح لقلبها ولا لعقلها ب أن يضعف من موقفها، وشيئا فشيئا مضت تحكم شراكها حول القائد الروماني من جميع الجوانب، فإذا به يهجر حتى العباءة الرومانية ويستعيض عنها بالرداء الإغريقي وأخيرا أقدم على الزواج منه ا

طبقا للتقاليد المصرية، متناسيا أن له زوجة في روما. وفي عام ٤٠ جاءت كليوباترا منه بتوأمين : الكسندر هيليوس، بمعنى الشمس، وكليوباترا سيليني، بمعنى التمر.

انطونيو يتزوج من اوكتافيا

ثم حدث أن وجد الرومان أنفسهم يقتربون من النار والدماء. فانتزع أنطونيو نفسه من بين ذراعي كليوباترا وأسرع إلى روما. وهناك وجد نفسه في موقف مخيف. فلم يسعه إلا التصالح مع أوكتاف، ولإرضاء الشريك الثاني، ليبيدوس تجاوز له عن بعض المال، على سبيل الرشوة. ولكي

يضمن بقاء أوكتافيوس في جانبه قبل أن يتزوج من شقيقته اوكتافيا، وكانت على قدر كبير من الجمال، بل قيل أنها كانت أجمل من كليوباترا.

وبلغ كليوباترا الخبر، فثارت ثائرتها واشتد حزنها، وبلغ م غضبها أنها أخذت تمزق الثياب الثمينة باعتبار أنها (ملابس الفضيحة). ومضت تحطم الأشياء القيمة التي وقعت عليها عينها.

وقد تضاعفت آلامها حينما علمت أن أوكتافيا قد جاءت من انطونيو بمولودة، تلك كانت انطونيا الصغيرة التي أصبحت فيما بعد جدة النيرون.. ذلك الإمبراطور المجنون الذي أمر بإحراق روما لمجرد التسلية!

وتمضي ثلاثة أعوام ونصف. ثم يهاجم اوكتاف انطونيو. تلك كانت موقعة اكتيوم البحرية الشهيرة التي بدا فيها سوء الحظ يلاحق انطونيو.

وحاول أنطونيو أن يدافع، معتمدا على القوى القليلة التي بقيت بجانبه، غير أن كفاحه ذهب سدى، فقد اقترب اوكتافيوس من الإسكندرية، فلم يعد له أمل في النجاة. وكانت كليوباترا تتابع الأحداث، فأدركت، كما أدرك انطونيو، انه لم يعد هناك طريق للخلاص سوى الموت.

القدر يلعب لعبته

وسعى بعضهم إلى انطونيو ليخبره أن كليوباترا قد فضل ت أن تفارق الحياة. وكانت قد لجأت إلى ضريح مرتفع من المرمر أمرت من

قبل بإنشائه واعدت فيه تابوتا لها.

وصاح انطونيو في جزع :

– أي كليوباترا، انه لا يحزنني أن تفارقيني، إذ أنني لن أتوانى في اللحاق بك. وإنما الذي يؤلمني أن يكون هناك قائد كبير يرى إنني فقدت الشجاعة التي تذرعت بها امرأة!

ثم طلب من عبده ايروس أن يقتله، غير أن العبد فضل أن يقتل نفسه. فسحب انطونيو السيف من جسده وهو يقول :

– لقد علمت سيدك ما كان يجب أن يفعله.

ثم اغمد السيف في صدره.غير أن الطعنة لم تقف عليه، بل تركته يعاني من ج رح خطير. فحمل إلى ضريح كليوباترا، وهناك، تحت نوافذ الضريح العالي، علم أنها لم تمت، فأخذ يتوسل إليها أن تجعله يموت بين ذراعيها.

وهنا نترك الحديث لبلو تارك :

« أدلت كليوباترا قماشا وحبالا لرفع انطونيو. وكانت قد أبعدت جميع إتباعها باستثناء فتاتين من خواصها هما كرميون وإيران، فتعاونت معهما في رفع أنطونيو بينما كانت الدماء تنزف من جرحه. وقال شهود عيان أنهم لم يروا قط منظرا أعظم حزنا وأشد ألما. فقد كانت دماء أنطونيو تغطيه، وبينما كان يلفظ أنفاسه كان يجاهد في رفع يديه ومدهما نحو كليوباترا ».

ومات انطونيو بعد لحظات بين ذراعي المرأة التي ضحى بكل شيء في سبيل حبها. وقد مات سعيدا، فهو « لم يمت في خسة ودناءة بل سقط في ساحة الوغى تحت سيف روماني مثله».

وأفاقت كليوباترا بعد قليل على واقعها المؤلم. فقد أدركت أنها أصبحت أسيرة اوكتاف، وبعد محادثة طويلة مع ذلك الذي تبناه قيصر علمت أنه صمم على استعباد بلادها العزيزة، مصر، وان يسحبها هي في التراب وراء عجلته الحربية في شوارع روما، إعلانا عن انتصاره.

وطلبت الملكة أن يذهب بها إلى قبر انطونيو. وهناك أخذت تبكي بمرارة، ثم ألقت بنفسها ف وق بلاطة القبر وأخذت تقبلها في جنون.ثم عادت بعد ذلك إلى الضريح رابطة الجأش، وطلبت سلة التين التي كانت تختفي فيها أفعى.وعندما دخل أوكتاف إلى غرفتها وجدها متمددة وقد فارقتها الحياة. وكانت قد تحلت بجميع جواهرها ووضعت فوق جبينها العصابة المزدوجة التي تحمل شعار البطالمة. ولدى قدمي الملكة كانت خادمتها ايراس مطروحة وقد فارقتها الحياة، أما الخادمة الأخرى فكانت لا تزال تحتضر. واقترب ضابط منها وقال :

– كرميون، هل أبدت سيدتك شيئا من الشجاعة وقت الموت؟

فردت عليه في حشرجة :

– بلى، كل الشجاعة. وكيف لا وهي سليلة الملوك؟

ثم لفظت أنفاسها لتلحق بسيدتها.

زعيمة الشرق في الأدب الشعبي المناهض لروما

د. أحمد عتمان

في كثير من الأحيان تستطيع شفافية العبقرية الإبداعية عند الأدباء والشعراء الوصول إلى جوهر الأشياء وحقائق التاريخ السحيق برغم ما قد يلف الماضي البعيد من إبهام وإلغاز أو ما قد يكتنفه من تلفيق وتزييف. وقد لا يحتاج الأديب أو الشاعر إلى كثير عناء في الدراسة والبحث لكي يصل إلى مثل هذه الحقائق، وإن كان مؤكدا أن عمله الإبداعي سيكسب أبعادا جديدة ويصيب أهدافا عديدة ويتميز بتأثيرات خاصة وفريدة لو أنه جمع بين شفافية العبقرية الإبداعية من ناحية والخلفية الثقافية الدالة على طول البحث والفحص، من ناحية أخرى..

ومثل صارخ للشاعر الذي استطاع أن يصل إلى جوهر الحقائق التاريخية دون معاناة طويلة في البحث يمكن أن نجده في أمير الشعراء أحمد شوقي عندما نظم أفضل مسرحياته « مصرع كليوباترا » فلقد تغنى بهذه الملكة البطلمية كزعيمة وطنية برغم أن التراث الأدبي والتاريخي لا يحفظ لنا إلا الجانب السيئ من شخصية هذه الملكة حتى صارت صورتها التقليدية الراسخة في الأذهان هي صورة عاهرة تجيد فن الهوى. هكذا صورها شعراء العصر الأوغسطي في روما بايعاز من أكتافيانوس (ت أوغسطس) عدو كليوباترا اللدود، وبالمثل صورها بلوتارخوس في «

سيرة انطونيوس » عاشقة ماكرة وقادرة على سجن انطونيوس في أحضانها وحبسه في دائرة لا يملك الفكاك منها. هي معه أينما ح ل فحتى لو تزوج في روما ألف مرة حتما سيعود إلى عشيقته الساحرة التي تشده إليها بخيوط من ذهب، وتعكس هذه الصورة وجهة النظر الرومانية الشعبية والرسمية عن كليوباترا. فإذا أضفنا إلى ذلك المخاوف السياسية التي انتابت أهل روما من طموحات هذه الملكة فهمنا مدى الحقد الذي تنضح به كتابات أدباء ومؤرخي ذلك العصر تجاهها، ولقد آن الأوان لكي يعيد الباحثون عندنا صياغة تاريخنا الذي زيفه المغرضون أو من كانوا يتحكمون في مصائرنا. ولو تحقق لنا ذلك ستنعكس آثاره على أعمال مؤلفينا المبدعين حيث ستتوفر لهم مادة تاريخية يسهل عليهم استلهامها. ومن أهم الموضوعات التي تحتاج إلى إعادة نظر موضوع كليوباترا الذي نحن بصدده.

لقد ظهرت هذه الملكة في وقت كانت فيه الدولة البطلسية قد وصلت إلى الحضيض وكانت على وشك أن تتهاوى وتتلاشى. ولقد أثبتت الأحداث فعلا أن الازدهار الذي أصابها على عهد كليوباترا كان بمثابة وهج الشمس أو الشفق الذي يزداد بريقا ورونقا كلما اقتربت لحظة الغروب. لقد امتد سلطان كليوباترا ولاسيما بعد هدايا انطونيوس إلى رقعة فاقت ممتلكات البطالمة السابقين بل ضمت أقاليم لم يحلم بها أحد من الملوك الثلاثة الأوائل مؤسسي الإمبراطورية البطلمية بقوة سواعدهم وببذل أقصى جهد ممكن. أما الآن فها هي حفيدتهم كليوباترا تقيم صرح إمبراطورية بطلمية جديدة معتمدة على سلاح الجمال والفتنة

وهو سلاح أثبت التاريخ فعاليته في كثير من فترات الزمن، وينبغي أن نتذكر هنا أن كراهية الرومان وخوفهم لم يولدا مع قصة حب انطونيوس وكليوباترا. ولكن ظهرا للوجود عندما استولت كليوباترا من قبل على قلب يوليوس قيصر، فعندئذ خشي الرومان أن بحول هذا العاهل الكبير جمهوريتهم إلى مملكة هيللينسنية يتربع على عرشها جنباً إلى جنب مع كليوباترا. وتردد القول فعلا بأن يوليوس قيصر كان ينوي نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى الشرق، فان بلت هذه الإشاعات على شيء فإنما تدل على مدى سيطرة كليوباترا على يوليوس قيصر الذي لم يعد في نظر أصحاب هذه الشائعات رومانيا بل حاكمة شرقية. زد على ذلك أن كليوباترا كانت تعتبر نفسها زوجة يوليوس قيصر وسجلت على أحد المعابد أنها أنجبت قيصرون من آمون رع الذي خالطها في صورة يوليوس قيصر. ويبدو أن الأخير قد اعترف بأبوته القيصرون وانه أقام تمثالا من الذهب الكليوباترا في معبد فينوس الوالدة أو راعية الولادة.

ولو كانت كليوباترا تشك في نوايا يوليوس قيصر لنسب طفلها إلى زوجها وأخيها بطليموس الثالث عشر (٦٣ – ٤٧ ق.م) الذي توفي قبل ميلاد قيصرون بستة شهور فقط.

وعندما ذهبت كليوباترا لتقيم في روما بالقرب من يوليوس قيصر أثارت موجة عارمة من الاستياء في الأوساط الرومانية. ففي ذلك الحين وعلى وجه التحديد عام ٤٦ ق.م قاد يوليوس قيصر موكب انتصاره حيث سيقت فيه أخت كليوباترا الصغرى أرسينوى الأميرة العنيدة وحملت صورة اليوثينوس واخيلاس، وتمثالا للنيل والفنار تمجيدا وتخليدا لانتصار

يوليوس قيصر في الحرب السكندرية عام ٤٨ ق.م. ولقد شاهدت كليوباترا هذا الموكب بعينيها مما أثار سخط الرومانيين الذين تأثروا أيما تأثر بمنظر ارسينوى الأميرة المكبلة بالقيود بسبب إخلاصها ووطنيتها. وقارنوا بين هذا المصير البشع وبين حياة كليوباترا الماجنة التي أسرت عاهلهم يوليوس قيصر وجاءت بنفسها إلى ضفاف نهر التيبر وكأنها تسعى للسيطرة على روما نفسها.

فلما وقع انطونيوس في بحر الحب الذي سبح فيه من قبل يوليوس قيصر زاد الطين بلة ولما وهب كليوباترا هدايا الأرض والألقاب ضاعف من ذعر الرومانيين. وفي نفس الوقت تخلق تحت الأرض أدب النبوءات الذي شاع في بلدان الشرق الأوسط شيوع النار في الهشيم. ويتخذ هذا الأدب موضوعة أساسية هو أن الشرق سيتفوق يوما ما على الغرب مهما طال الزمن وأن منقذا عظيمة سيظهر من بين بناء شعوب هذه المنطقة وستأتي على يديه نهاية الغطرسة الرومانية. فلما حصلت كليوباترا على ما حصلت من مكاسب توسعية وشهرة عالمية تحول هذا الأدب إليها متخذا منها الشخصية المحورية فبدت الملكة المنفذة التي ستعيد أمجاد الشرق الهيلليني والهيللينستي إلى سابق عهدها. فلنتوقف قليلا عند صفحات هذا الأدب الغامض.

الرومان مهزومون لا محالة

هناك نبوءة تنسب إلى تاريخ ما قبل عام ١٠٠ ق.م ويطلق عليها اسم « نبوءة البرايتور المجنون، نسبة إلى احد المناصب الرومانية وهي

تنذر الرومان بان جيشة قوية سيأتي من مشرق الشمس أي من أسيا بهدف استعباد روما وإذلالها. وفي القرن التالي تنبأ رجل إغريقي شرقي أو متأغرق من الشرق يدعى هيس تاسبيس وربما حكيمة فارسية بان الحكم والسلطان سينتقل بالعنف من روما إلى يد منقذ من الشرق. وبلغ من ذيوع هذه النبوءة وخطورتها أن الرومان فرضوا عقوبة الموت على كل من تخول له نفسه قراءتها أو ترديدها. ولكن خطر النبوءات وأكثرها إزعجاً لروما والرومانيين هي تلك التي جاءت في الكتب السيبيلية ولا أدل على مدى الانزعاج الذي أصاب الرومان مما تحويه هذه الكتب من أنهم لم يحتفظوا إلا بنسخة مختارة ومنقحة لها ثم أعادوا تعديلها وتشذيبها عام ٨٣ ق.م فيما يمكن أن نعتبره نسخة رسمية للنبوءات السيبيلية، ولكنها ظلت في الأماكن التي انبثقت منها أصلا في سوريا وأماكن أخرى بالشرق تحمل النذير لروما والبشر المريحة لشعوب الشرق بان الحكم الروماني لن يبقى أبد الدهر.

وترجع بعض هذه النبوءات السيبيلية إلى عصر بعض الملوك الهيللينستيين مثل سيليوكوس انطيوخوس الرابع الملقب بالظاهر (١٧٥ – ١٦٤ ق.م) الذي كان قد حيا الآمال في سقوط روما. وتتحدث بعض فقرات هذه النبوءات عن بؤس بلاد الإغريق بعد أن وقعت تحت براثن الحكم الروماني عام ١٤٦ ق.م وبعضها يمجد عدو روما اللدود ميثريداتيس السادس الذي مات عام ٦٣ ق.م وتصفه بأنه المنقذ. ويورد أثينايوس الرواية الأسطورية التي ذاعت عن ولادته وفحواها أن مذنبة فلكية توهج في كبد السماء عندئذ واستمر كذلك لمدة سبعين يوما.

وتحدثت النبوءات أيضا عن قرب ظهور ملك محارب سيمهد بسيفه الفتاك الطريق لسقوط روما وقيام العصر الذهبي.

وأهم من ذلك الإشارات الغامضة التي وردت في أدب المقاومة التنبؤي هذا عن امرأة ستجلب الخلاص للشرق، فعندما – ستكون في ذروة المجد والقوة كما يؤكد العرافون ستتضاعف الخيرات وستكون الحياة وكافة الممتلكات ملكا للجميع ولن تكون هناك أسوار ولا استحكامات على ظهر الأرض التي ستحمل ثمارا أوفر مما حملت من قبل وستنفجر فيها ينابيع اللبن الصافي والعسل الشافي. فإذا شك بعض المؤرخين أو القراء في أن هذه النبوءة تشير بطرف خفي إلى كليوباترا فان النبوءة التالية بإشارتها الواضحة لحكومة الائتلاف الثلاثي ستعينهم على التغلب على شكوكهم، تقول النبوءة : «وعندما ستكون روما مترددة في فتح مصر ستظهر الملكة القوية بنت الملك الخالد بين الرجال.. وثلاثة سيخضعون روما لقدر يبعث على الإشفاق.. ». وأكثر من ذلك فان النبوءات تتحدث عن هذه المرأة المنتظرة على أنها أرملة مما يزيد رقعة التشابه بينها وبين كليوباترا التى عزلت أخاها وزوجه ا بطليموس الرابع عشر عام ٤٤ ق.م وخرجت على التقليد البطلمي المعروف أي أن يكون الحكم في يد الزوج الملكي شركة. تقول النبوءة :

« وعندئذ سيخضع العالم الواسع كله الحكم امرأة وسيدين لها بالولاء في كل شيء وحدها ستكون هذه الأرملة ملكة العالم الواسع كله سيقذف الإله بالذهب والفضة إلى البحر وفي الماء أيضا سيقذف السيوف البرونزية لهؤلاء الرجال الغانين في عمر يوم من الأيام، وعندئذ

ستصبح كل عناصر الكون بائسة مترملة ولكن الإله العلى في الأثير سيطوي السموات على السجل للكتب وستسقط السماء الزاخرة بالنجوم على الأرض القدسية وعلى مياه البحر. وتتساقط السنة اللهب من عل ودون توقف. سيحرق الإله الأرض والبحر بلعنة منه. الأيام والسموات الزاخرة بالنجوم وكل الكون سيتحول إلى شيء واحد إلى طهارة خالصة. والنجوم الضاحكة المضيئة ستصمت وستخبو فلن يكون هناك ليل ولا فجر ولن تكون للهموم سهام عديدة بل لن تكون هناك هموم قط، لا ربيع ولا صيف لا شتاء ولا خريف وسيأتي حساب الاله القدير في كل شيء بهذا العنصر العظيم القادم وعندها ستسقط كل هذه الأشياء »

وتضيف النبوءة « ولكنك لن تكونين بعد أرملة فسوف تتزوجين الأسد ». وهنا ينبغي أن نتذكر أن الأسد في الأساطير الإغريقية هورمز بطولة هرقل الذي لم يكن يرتدي من ملبس سوى جلد الأسد فإذا أضفنا إلى ذلك أن انطونيوس كان حريصا كل الحرص على أن يظهر بمظهر هرقل أصبح للنبوءة مغزى عميق. فالأرملة التي ستتزوج الأسد هي كليوباترا عشيقة وزوجة وحليفة أنطونيوس المتشبه بالبطل الأسطوري هرقل.

وهناك نبوءة أخرى طويلة تقول « هائلة تلك الأموال التي دفعتها أسيا جزية إلى روما، ولكن روما ستدفع ثمن ذلك ثلاثة أضعاف لكي تتطهر من غطرستها القاتلة. وفي مقابل كل رجل من رجال آسيا خدم سيدة ايطاليا سيتعذب في أغلال العبودية عشرون ايطاليا وسيدخل قفص الاتهام والإدانة ألاف عديدة منهم، أي روما ذات السلالة اللاتينية أيتها

العذراء المتزينة بالألوان والأصباغ الزخرفية، أيتها المنتشية في أحضان مئات العشاق ستضعين في يديك سلاسل الأسر والعبودية. س يذهب عنك البهرج وسيقصون شعرك الناعم بأمر صارم من سيدة قوية وستلقي بك من السماء إلى الأرض تلك التي بيدها تمسك العدالة ولكنها سترفعك بعد ذلك إلى أعلى لأن السلام الوديع سيعود إلى أسيا وستسعد به أوربا وسيمنح الهواء حياة أطول وقوة، وطعاماً أوفر وستتزايد طيور الأرض وحيواناتها

وستختفي العواصف والأعاصير. بارك الإله في الرجل وبارك الإله في المرأة اللذين سيشهد أن هذا الزمان. أنهم وكالفلاحين الذين لم يروا حياة القصور من قبل سيصعقون من الدهشة لرؤية الثروات. ذلك أن نظامه واحدة حقيقية وقانونية واحدة حقيقية سينزل من عالم النجوم ومعهما سيأتي فيضه ليقطن من البشر الشيء الذي طالما تمنوه وفضلوه على كل شيء، أي الوفاق والانسجام المتين والمقبول وكذلك الحب الأخوي بين كافة بني البشر. وسيهرب الفقر من العالم وستذهب الحجة والفوضى بلا رجعة وستختفي في ذلك اليوم مشاعر الحسد والحقد، الغضب والحمق وكذا المعارك الفتاكة والنزاعات والسرقات والتدمير وكل أنواع الشرور ».

ولقد تم فعلا قص شعر روما الناعم على يد سيدة مسيطرة هي كليوباترا التي تلقت من انطونيوس هدايا الأرض والولايات الخصية على حساب الإمبراطورية الرومانية. ومن الملاحظ أن هذه النبوءة مفعمة بمشاعر الغضب والرغبة في الانتقام من غطرسة الرومانيين، كما أنها تنم

عن عطش الشرق المغلوب على أمره للحرية والعدالة. فالنبوءة تمد المطحونين من أهل الشرق بالآمال الحالمة في أن عجلة الحظ لن تتوقف بل ستستمر في دوراتها العادية والمنتظمة وستعطيهم ما أخذت منهم وسيدفع الثمن في المستقبل القريب من ظلم وتكبر. وهكذا توضح هذه النبوءة بما لا يدع مجالا للشك المعنى العميق الهدايا الأرض والألقاب التي اكتسبتها ملكة مصر كخطوة أولى نحو إعادة أمجاد الشرق والقضاء على تعسف الحكم الروماني. وترسم لنا هذه النبوءة الجنة التي كان أهل الشرق يحلمون بها، إنها جنة السلام والانسجام، يتساوى فيها الإغريق والرومان، ويتعاون فيها الشرق مع الغرب متآخين متحابين. ولقد كان هذا الحلم بعيدة كل البعد عن مجرد أن يخطر بذهن روما واوكتافيانوس ولكنه كان مجسدا تمام التجسيد في سياسة انطونيوس وكليوباترا. ومن المؤسف أن بلوتارخوس المتحمس بشدة الدعوة التآخي بين الإغريق والرومان ولفكرة الجمع بين العبقرية الإغريقية والعسكرية الرومانية لم يتفهم سياسة انطونيوس وكليوباترا التي كانت في الواقع تسعى إلى تحقيق الهدف نفسه وإنما على أسس إنسانية من الحب والتآخي بين بني البشر جميعا.

مؤرخ يهودي يشوه سمعة كليوباترا

د. أحمد عتمان

كثيرة هي المسلمات التي ينبغي أن نعيد النظر فيها، ومنها القول بأن التاريخ يحفظ الحقائق دون سواها. فهذا القول – وإن صح في مجمله – يغفل حقيقة أخرى ملموسة وهي أن – التاريخ حفظ لنا أيضا بعض الأكاذيب. والصورة التاريخية التقليدية الكليوباترا السابعة (٧٠/ ٦٩ ق.م – ٣٠ ق.م) ملكة مصر وأخر الملوك البطالمة هي أكذوبة كبرى. ولقد توارث المؤرخون والأدباء هذه الصورة جيلا بعد جيل وصرنا لا نرى في كليوباترا سوى امرأة لا تجيد سوى فنون الهوى ونسي المؤرخون والأدباء أن هذه الصورة التقليدية لكليوباترا – أعني هذه الأكذوبة الكبرى – هي من صنع أجهزة الإعلام الإمبراطورية المغرضة في روما. فكليوباترا هي التي تحالفت مع أنطونيوس ووقفت في وجه إمبراطور روما أوغسطس فأوعز الأخير إلى الدوائر الأدبية الرومانية بشن هجمة دعائية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل على كليوباترا الملكة الشرقية المتمردة. ولقد قاد هذه الحملة الإعلامية فرجيليوس أمير الشعر اللاتيني وكذا هوراثيوس وبروبرتيوس.

ثم جاء بلوتارخوس وواصل الحملة مع بقية مؤرخي وأدباء الإمبراطورية الرومانية. وستترك أمر تفنيد هذه الادعاءات والافتراءات

الرومانية إلى دراسة مفصلة لا يتسع لها المجال هنا ويهمنا الآن التنويه إلى أن اليهود لم يتركوا هذه الفرصة السانحة فقد ساهموا مساهمة فعالة في الحرب الإعلامية الرومانية وشاركوا في تشويه سمعة كليوباترا.

هذا المؤرخ المغرض

كان نيكولاوس الدمشقي (المولود حوالي ٦٤ ق.م) مربية الأبناء كليوباترا، ثم ترك خدمتها وانضم إلى حاشية الملك اليهودى هيرود (هيروديس) الكبير حوالي ٧٣ ق.م – ٤ ق.م). ونشر نيكولاوس الدمشقي هذا ترجمة ذاتية بالإضافة إلى سيرة تمجيدية لشباب أوغسطس وتاريخ عالمي في مائة وأربعة وأربعين كتابة يبدأ من أقدم العصور وينتهي بموت الملك اليهودي سالف الذكر. ولقد وصف بالتفصيل الأحداث التي عاصرها وعاشها بنفسه مما يعطي لكتاباته أهمية كبرى لا يعوضنا عن فقدانها سوى ما اقتطفه منها المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس (٣٧ / ٣٨م – ١٠٠ م).

ولقد ألف هذا المؤرخ اليهودي كتابة بعنوان «عن الحروب اليهودية» نشر عام ٧٤ – ٧٩م. وله مؤلف آخر بعنوان الآثار اليهودية، نشر عام ٩٣/ ٩٤ م. في عشرين جزء. ولقد ضمن فلافيوس يوسيفوس الكتابين معلومات قيمة عن علاقة كليوباترا بالملك اليهودى هيرود الكبير. وبادئ ذي بدء كيف يمكن الاعتماد على رواية هذا المؤرخ الذي استمد معلوماته في غالبيتها من مذكرات الملك اليهودي نفسه ومن نيكولاوس الدمشقى الحاقد على كليوباترا بعد أن فقد شرف خدمتها

فصار من أخلص أتباع هيرود؟. وإذا أردنا أن ندلل على انحياز المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس انحيازه تامة لسيده ملك اليهود هيرود فلن نفعل أكثر من الإشارة إلى مقالة بعنوان «في الرد على أبيون» وفيها يهاجم هذا المؤرخ ويفند الآراء المعادية للسامية – إن صح التعبير – لدى مختلف الكتاب القدامى من القرن الثالث ق.م إلى أبيون الذي تحمل المقالة اسمه وهو إغريقي متمصر عاش في الإسكندرية ثم رحل عنها إلى روما أيام الإمبراطور تيبريوس (١٤ م – ٣٧ م) وظل هناك حتى عصر كلاوديوس (٤١ م – ٥٤ م). بقي أن نعرف سر هجوم فلافيوس يوسيفوس على أبيون : لقد نسب إلى أبيون مقالا يمتدح فيه كليوباترا وينتقد اليهود! فما كان من فلافيوس يوسيفوس إلا أن اتهمه بمعاداة السامية لأنه شايع كليوباترا. والسؤال الآن ماذا سيفعل هذا المؤرخ بكليوباترا نفسها؟

لقد غطت توسعات كليوباترا في الأرض – بفضل هدايا حليفها وعشيقها وزوجها أنطونيوس – مساحات شاسعة من منطقة الشرق الأوسط كما نسميها الآن. لقد أرادت هذه الملكة أن تحيي الإمبراطورية البطلمية التي أسسها جدها بطليموس الأول المنقذ (حوالي ٣٦٧/٣٦٦ – ٢٨٣ / ٢٨٢ ق.م). وهى إمبراطورية ضمت أجزاء كبيرة من سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن – كما تسمى هذه المناطق الآن – بل وشملت أجزاء من آسيا الصغرى. وهذه الممتلكات التي استعادت كليوباترا معظمها غطت مناطق غنية بالغابات التي استغلت كمصدر أساسي للأخشاب في عصر البطالمة الأوائل بل ومنذ العصر الفرعوني.

ومن هنا نفهم حرص كليوباترا على ضم هذه الأراضي من ناحية ومدى أهمية أن تمتلك مصر هذا العمق الاستراتيجي اللازم لبناء الأساطيل من ناحية أخرى. ويمكن أيضا أن نتفهم لماذا وهب أنطونيوس هذه الأراضي إلى كليوباترا فلقد أراد أن تلعب مصر بأساطيلها القوية دور الشرطي في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث توفرت لدى مصر القوة البشرية والخبرة الملاحية ولم يكن ينقصها سوى الأخشاب وها هو أنطونيوس يسد هذا النقص.

ما يهمنا الآن أن كليوباترا أخذت بعض الأراضي من ممتلكات هيرود ملك اليهود، وكانت علاقاتها بهذا الملك من قبل مثار ضيق وحرج لأنطونيوس. فبعد أن كانت الملكة المصرية على علاقات ودية معه تغير الحال وصارا عدوين لدودين. ذلك أنه بعد أن كان هيرود أميرة مناضلا في المنفى أصبح الآن حاكمة في جيروسالم (القدس) وهو المركز الذي جعله يمثل العقبة الكئود أمام طموحات كليوباترا في إحياء الإمبراطورية البطلمية. وبالمنح التي وهبها أنطونيوس إلى كليوباترا أصبحت الملكة المصرية تحكم أراض تحوط بالمملكة اليهودية من كل جانب مما دفع هيرود إلى أن يحصن حدوده الجنوبية خوفا من وقوع غزو مصرى مفاجئ.

أما أنطونيوس فقد تنازعه هدفان أراد أن يحققهما في وقت واحد. إذ أزمع توسيع ممتلكات حبيبته وحليفته المصرية ولكنه بنى سياسته الشرقية على أساس قيام دولتين قويتين لا دولة واحدة إحداها مصر والأخرى تحت حكم هيرود. ويبدو أن المملكة اليهودية كانت تمثل

بالنسبة له وفي حروبه القادمة سندا قوية وإلا فلماذا بذل جهودا مضنية فيما بين (٤٠ و٣٧ ق.م) ليجلس هيرود على عرش جيروسالم (القدس)؟ خلاصة القول أن أنطونيوس لم يكن على استعداد لأن يضحي بالمملكة اليهودية من أجل عيون كليوباترا التي حاولت ذلك مرارة بالعتاب اللين حين وبالتضرعات العاطفية أحيانا ثم سعت بعد ذلك جاهدة بالسياسة والمكر وذهبت كل مساعيها سدى.

بيد أن أنطونيوس قد أجبر هيرود على تقديم بعض التضحيات وأولها أن يتنازل عن الشريط الساحلي لمملكته. ذلك أن يوليوس قيصر كان قد أعطى لليهود ميناء جوبا وهو الميناء الذي يسلمه أنطونيوس الآن إلى كليوباترا مع بقية المدن الساحلية المجاورة باستثناء «عسقلون» التي بقيت مستقلة و«غزة» التي تركت لهيرود لتكون المخرج البحري الوحيد لمملكته. وبذلك أصبح ساحل البحر المتوسط الشرقي حتى أقصى شمال لبنان الحديثة ملكة الكليوباترا. ولكن الذي حز في نفس هيرود بصفة خاصة هو أنه خسر بساتينه التي كانت تدر عليه أموالا طائلة. وهي بساتين تقع على مسافة ليست ببعيدة عن النهاية الشمالية البحر الميت وتضم أشجار النخيل التي تنتج على مستوى اقتصادى مرتفع أجمل وألذ أنواع البلح المعروف في العالم، وبها أيضا مزارع البلسم والذي كانت أسعاره مرتفعة جدا لأنه كان يستخدم كعطر سحرى ودواء طبى، يعالج الكثير من الأمراض، ولقد تم التوصل إلى ترتيبات معينة يستأجر بموجبها هيرود من كليوباترا هذه البساتين التي ضاعت منه على أن يدفع مبلغة معينة من المال كل عام، ولقد كان هيرود سعيد بهذه الترتيبات إلى أقصى

حد فأخشى ما كان يخشاه حينئذ هو أن يتدفق الرسميون المصريون إلى هذه المنطقة الغنية التي لم تكن تبعد عن جيروسالم سوى خمسة عشر ميلا. وجدير بالذكر أن كليوباترا كما يروي أخذت بعض الشتلات من شجيرات البلسم لكي تزرعها في هليوبوليس بمصر الوسطى

وبأمر من أنطونيوس قدم العرب النبطيون (أو الأنباط) أيضا بعض التنازلات في الأرض إلى كليوباترا. ولقد كانت دولتهم هي أكبر دولة عربية موجودة في تلك الآونة. كما أنها لم تك تابعة للرومان بصفة واضحة وإن كانت تعتمد عليهم كثيرة وتخضع لنفوذهم. كانت أراضى هذه الدولة العربية تضم الأردن الحديث ثم تمتد جنوبا على ساحل البحر الأحمر فتشمل خليج العقبة وأجزاء من شبه جزيرة سيناء. وربما كانت كليوباترا تطمع في ضم أراضي هذه الدولة برمتها إلى ممتلكاتها ولكنها على أية حال لم تنل سوى قطعة صغيرة في أقصى جنوب البحر الميت.

وأهم من ذلك أنها حصلت على امتياز استغلال القار (أو الحمر) الذي كان يطفو على سطح هذا البحر ويستخدم كعقار طبي، وكمادة حافظة، ومبيد حشري، وملاط للبناء. وتم التوصل إلى ترتيبات معينة تسمح للعرب النبطيين باستغلال القار نظير إيجار سنوي يدفعونه إلى كليوباترا. ولكن هيرود ملك اليهود الذي لم تغمض له عين منذ فقد بساتينه الغنية رأى أن يعوض خسائره فتقدم بعرض بارع فيه كثير من المكر والدهاء. لقد عرض أن يكون الوسيط بين العرب وكليوباترا أي أن يكون هو المسئول عن المبالغ التي يدفعها العرب النبطيون لكليوباترا. ومع أن هذه المهمة تعرضه لكثير من المتاعب إلا أنها تمثل ضربة

لعصفورين بحجر واحد. حقا انه كان مرتبطة بملوك العرب النبطيين عن طريق المصاهرة والتجارة إلا أنه لم يكن مستريح البال في تعامله معهم، ومن ثم كان يدبر عن طريق العرض المقدم منه للتدخل في شئونهم الداخلية بهدف التخريب. ومن ناحية أخرى فعن طريق نفس العرض كان يجامل أنطونيوس بطريقة غير مباشرة لأنه كان يعلم أن إرضاء كليوباترا يدخل السرور على نفس أنطونيوس.

وإذا كان هيرود يظن أنه :

- عندما أخذت كليوباترا بعض الشتلات من شجيرات البلسم لتزرعها في مصر الوسطى
- قصة محاولة كليوباترا الإيقاع بـ "هيرود" هي محض افتراء مغرض!

أشبع نهم كليوباترا فقد أخطأ لأنها كانت في الحقيقة تحلم بإزالته هو ومملكته من الوجود نهائية، وإلقائه في البحر. ولقد برهنت كليوباترا على نواياها تلك بمحاولاتها المتكررة للتدخل في شئون المملكة اليهودية الداخلية. فيحكى أن هيرود كان قد تزوج من ماريام أو ميريام) أميرة الأسرة الملكية الهاسمونية القديمة عام ٣٧ ق.م. فحل في الحكم محلها وكان الهاسمونيون السابقون كهنة يهود لهم مكانتهم كما كان بعضهم ملوكاً وأمراء. أما هيرود الذي صار الآن ملكة فلم يستطع أن يتولى منصب الكاهن الأعظم لأنه لم يسبق له أن تولى أية مناصب كهنوتية من قبل. وطفق يبحث عن شخص مناسب يتولى هذا المنصب فلم يجد سوى أخ ماريام ويدعى أريستوبولوس، ولكنه في اللحظة الأخيرة

عدل عن هذا الاختيار واستبدله بشخص آخر متخذا من صغر سن اريستوبولوس الذي لم يجاوز السادسة عشرة ذريعة. وهنا غضبت أم الأخير وتدعي ألكسندر وأرسلت إلى صديقتها العزيزة كليوباترا أحد المغنين لكي يطلعها على الموقف ويطلب منها أن تمد يد العون لها وبوصف كليوباترا «إيزيس الجديدة رأت أنه من المناسب أن تتبنى قضية النساء وتدافع عنها أمام سيد المنطقة كلها أنطونيوس. ونجحت كليوباترا في مسعاها مما اضطر هيرود ملك اليهود إلى التراجع والرضوخ بتعيين اريستوبولوس في منصب الكاهن الأعظم.

رواية مريبة!

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن ننظر الآن دون أي تخوف إلى صورة كليوباترا في رواية المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس التي ساهمت دون شك في تثبيت سمعة كليوباترا السيئة على صفحات التاريخ. لقد قامت الملكة المصرية – وفق هذه الرواية – بزيارة المملكة اليهودية بفضل وساطة نيكولاوس الدمشقي الذي كان عندئذ يقوم على تربية أطفالها والذي انتقل فيما بعد إلى خدمة هيرود وأصبح مستشاره الخاص. ولقد حفظ لنا فلافيوس يوسيفوس بعض الفقرات المقتطفة من مؤلف نيكولاوس الدمشقى تاريخ العالم، ومنها الفقرة التالية التي تعطى لنا رواية هيرود المريبة لزيارة كليوباترا الغريبة للمملكة اليهودية :

عندما اجتمعت كليوباترا بهيرود عدة مرات حاولت إغراء الملك. وربما شعرت فعلا بشيء من الميل نحوه ولكنها على الأرجح كانت تدبر

سرة للإيقاع به في فخها متظاهرة بأنها قد غلبت على أمرها. ولكن هيرود الذي لم يكن على علاقات ودية مع كليوباترا منذ أمد بعيد وكان يعرف الكثير عن غدرها بالرجال توفرت لديه الأسباب العديدة لكي أن يحتقر مغالاتها إلى هذا الحد. فإذا كانت تسعى حقه للإيقاع به في فخ الإغواء فمن الأولى أن تكون له غداء قبل أن تقدمه هي على مائدة العشاء. ولهذا السبب تحاشى عروضها واستشار خلصاءه فيما إذا كان عليه أن يقتلها وهي الآن في قبضة يده. وقال انه بهذه الطريقة قد يخلص ليس فقط أولئك الذين أوقعتهم في حبائلها المهلكة بل أيضا الذين قد يقعون مستقبلا ضحايا لشرورها الكثيرة. ودلل على أن مثل هذا العمل سيكون لصالح أنطونيوس نفسه فهي لم تبد أية بادرة للوفاء له في ساعات الحاجة وأوقات الشدة. ولكن أصدقاءه حالوا بينه وبين تنفيذ خطته. وأشاروا عليه بأن الأمر أولا وقبل كل شيء لا يستحق أن يورط نفسه في خطر داهم قد ينجم عن هذه الخطوة ثم توسلوا إليه ألا يتصرف في هذا الموضوع بتهور، وقالوا أن انطونيوس لن يصفح قط عن من يقدم على مثل هذا العمل ولو تبينت له المزايا المترتبة عليه مستقبلا. فمن جهة سيزداد حبه لها اشتعالا على اشتعال إذا تسرب إلى ظنه أنه قد حرم منها بالقوة أو بالخيانة ومن جهة أخرى فلن يكون هناك أي عذر مقبول لديه للتآمر ضد امرأة احتلت على أية حال المكانة العظمى بين أهل زمانها. وأما عن الفائدة المرجوة من مثل هذا العمل إذا كانت هناك حقا أية فائدة فسوف تتلاشى إن قرنت بالطيش الواضح في عدم تقدير موقف أنطونيوس. ومن ثم فان هذا الطريق – كما لا يصعب على أحد أن يرى

– محفوف بالمخاطر وسيجلب شروراً لا نهاية لها على عرشه وأسرته (أي هيرود)... وبعد أن زرعوا الخوف في قلبه وبينوا له الأخطار الكامنة في مثل هذه المحاولة منعوه من تنفيذها».

ومن الجلي الذي لا يحتاج إلى توضيح أن هذه الرواية اليهودية عن محاولة كليوباترا إغواء الملك اليهودي هيرود مختلقة ولا أساس لها من الصحة. لقد كان هدف هذا الملك متطابقة مع هدف كليوباترا في أن يظل كل منهما عند حسن ظن أنطونيوس وعلى وئام تام معه. وليس بقتل كليوباترا سيكسب هيرود رضي العاهل الروماني كما أنه ليس بإغواء هيرود ستحافظ كليوباترا على حب وحماية أنطونيوس لها. ومن المرجح أن الذي حدث هو أن الملك اليهودي بعد موت كليوباترا وأنطونيوس أراد أن يكسب ثقة عدوهما المنتصر أوغسطس فزعم ما زعم وأشاع أنه قد حاول مرارة أن ينصح أنطونيوس بالتخلص من كليوباترا والتخلي عنها وأنه نفسه كان يفكر في قتلها لتخليص العالم من شرورها. إن قصة محاولة كليوباترا الإغواء هيرود هى محض افتراء مغرض من جانب هذا الملك اليهودي الداهية أريد بها تلطيخ سمعة كليوباترا وتشويه صورة هذه الملكة التي سيطرت على عقل وقلب أنطونيوس محرك الأحداث في منطقة الشرق آنذاك.

كليوباترا من أعف نساء عصرها

د. سليم حسن

"إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ"

قرآن كريم

بعد وفاة العاهل العظيم الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق. م. تمزقت أوصال إمبراطوريته، وقسمت بين عظماء رجال دولته وقواده، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس أحد قواده الذي اشتهر بالقوة وسداد الرأي مما ساعده على تأسيس دولة عظيمة في مصر أعادت لها بعض مجدها الغابر. وقد سار على نهجه بعض أخلافه المباشرين، إلى أن قطعت مصر في فتوحها شوطاً بعيداً حتى أصبحت أقوى دولة في العالم مدة فترة وجيزة. غير أن فتوة سلوك هذه الأسرة لم تلبث أن تسرب إليها الوهن، ودبت فيها عوامل الانحلال والترف والخلاعة مما قرب أجل أفول نجمهم وضياع ملكهم جملة على يد فاتحين أقوياء. فلا غرابة إذاً أن نرى عند تولية كليوباترا السادسة وأخيها بطليموس الثاني عشر ملك البلاد عام ٥١ ق. م. أن سلطان هذه الأسرة أصبح على شفا جرف هار، وأن نهايتها صارت محتومة. وقد كان بطليموس الملقب بالزمار والد

كليوباترا يحس بدنو أجل دولته قبل وفاته؛ لذلك أوصى في وثيقة مختومة حفظت في مأمن في حيازة الجمهورية الرومانية أن يخلفه على عرش البلاد ابنته كليوباترا بالاشتراك مع أكبر أخواتها جرياً على تقاليد هذه الأسرة الموروثة. وقد كان أخوها الذي سمي فيما بعد بطليموس الثاني عشر حدثاً في العاشرة من عمره. غير أن هذه الوصية لم ترق عندما أعلنت في نظر كليوباترا، ولكنها لم تحاول أن تخفي ما يجيش في صدرها من طموح للاستئثار بعرش البلاد دون شريك لها. بيد أن الأحوال الداخلية لم تكن مهيأة لتحقيق مطمحها؛ إذ كان لهذا الملك الطفل أنصار أشداء يرون أن توليته العرش واجبة. ونخص بالذكر منهم الخصي بثنتس الذي كان صاحب القول الفصل في البلاط، ويساعده على ذلك قائد الجيش أخلاس. ثم مربى بطليموس نفسه ثيودوتس. فلما أحس هذا الثالوث بأطماع كليوباترا أخذوا يدبرون لكبح جماحها والحد من طموحها حتى نجحوا في إثارة شعور أهل الإسكندرية بالتألب عليها. ولما لم تجد لنفسها نصيراً قويا أمام هؤلاء الثوار أزمعت الفرار إلى سوريا حيث جندت جيشاً هناك وسارت به لمحاربة جيش أخيها في مصر، فاعترضها جيش أخيها على الحدود الشرقية عند بلزيوم وحال دون تقدمها داخل البلاد.

وفي خلال تلك الفترة الرهيبة من تاريخ البلاد كانت الحروب الأهلية في الجمهورية الرومانية قائمة على قدم وساق بين يليوس قيصر وبمبي. وقد انتهت بهزيمة الأخير في مصر وقتله بالقرب من بلزيوم على يد أتباع بطليموس الثاني عشر أخي كليوباترا. وفي هذه الفترة كان يليوس قيصر قد حضر إلى الإسكندرية مقتفياً أثر بمبي. ولما كان قيصر يعد

نفسه ممثل الجمهورية الرومانية التي وضع بطليموس الزّمار في حيازتها وصيته عن اعتلاء عرش مصر، فإنه ادعى لنفسه حق طلب كليوباترا وأخيها للحضور أمامه، وأجبرهما على تسريح جيشيهما والخضوع لما يقضي به هو في هذا النزاع القائم على ولاية عرش مصر. فلبى بطليموس نداء قيصر وعاد إلى الإسكندرية دون أن يسرح جيشه الذي تركه مرابطاً في بلزيوم ليعوق عودة كليوباترا إلى مصر.

أما كليوباترا فكانت على يقين من أنها ستقتل على يد أنصار أخيها إذا هي حضرت جهازاً إلى قيصر، فعقدت العزم أن تجعل قيصر يصغى إلى روايتها في ذلك النزاع؛ لذلك عادت سرا على متن سفينة إلى الإسكندرية لا يرافقها إلا تابع واحد وثقت بإخلاصه لها. فلما وصلت إلى مقز الملك احتالت في الوصول إلى حجرة قيصر في قصره، فأمرت أن تلف في بساط ناعم حمله تابعها الأمين على كتفه. واقتحم به أبواب القصر موهماً الحراس أنه قد جاء يحمل هدية لقيصر. وقد أفلح التدبير. ولم تكد عين قيصر تقع عليها حتى أسره جمال تلك الملكة الفتية، وأعجبته مغامرتها وجرأتها المنقطعة النظير. وقد كان قيصر صاحب شهرة ذائعة في استهواء النساء، والميل إليهن، فانحاز إلى جانبها وأخذ يناصرها، ومن ثم بدأت القصة الغرامية المشهورة بين قيصر وكليوباترا. وتدل الآثار المصرية أنه قد تزوج بها على حسب التقاليد الفرعونية. وبعد ولادة ابنهما قيصرون تبعت كليوباترا زوجها قيصر إلى روما حيث مكثت بها إلى أن قتل زوجها عام ٤٤ ق. م. وعندئذ لم تر بدا من العودة إلى مصر على جناح السرعة.

وقد كان موت قيصر سبباً في قيام حرب أهلية أخرى في روما؛ إذ طالب أنطونيو وأكتافيان بدم قيصر من قتلته بروتس وكاسيوس ومن اشترك معهما. ومن الغريب أن كليوباترا قد لزمت الحياد خلال هذا الشجار الذي نشب في روما فلم تمد يد المساعدة لأحد الفريقين. ولكن أنطونيو عندما تغلب على أعدائه وأصبح المسيطر على كل الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرمانية، لم يغفر لكليوباترا حيادها. ولذلك دعاها للحضور بين يديه في طرسوس لتسوغ موقف الحياد الذي ألتزمته أثناء حروبه انتقاماً لزوجها قيصر.

على أنه كان في مقدور كليوباترا أن تعصي أمره، وبذلك كان عليها أن تتحمل ما سيحيق ببلادها من خراب، وما ينالها هي نفسها من مذلة وهوان، فأثرت أن تذهب إليه بجيش أعظم خطراً وأشد بأساً من جحافله يجعله يضع سلاحه أمامها صاغراً مستضعفاً مهزوماً، فسارت إليه وفي وجهها ولسانها وعقلها تلك الأسلحة الفتاكة التي وهبتها لها الطبيعة. وكأن الشاعر العربي قد عناهما بقوله:

وغزانا بقامة وبعين فذي سيافة وذي طعانه

امتطت كليوباترا متن سفينة زينتها بأفخم أثاث، وحلتها بأبهى الرياش، وجلست في وسطها على عرش في صورة أفروديت ربة الجمال تحيط بها الجواري الكنس في صور ملائكة البحر، وسارت بها السفينة حتى وصلت إلى طرسوس. وقد كانت أول أحبولة نصبتها لأنطونيو وأول سهم رمت به في صميمه أن دعته إلى وليمة على ظهر سفينتها، فكان

انتصارها في هذا الحفل مبيناً حاسما، وأصبحت منذ تلك اللحظة معبودة أنطونيو وهدف حياته ومعقد آماله. ولم يلبث بعد هذه المقابلة إلا قليلا حتى أصبح لها زوجاً شرعيا. وبذلك نجحت كليوباترا في درء الخطر عن الكنانة. وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة أنطونيو وكليوباترا تلك القصة العالمية التي غطت على قصتها مع قيصر، وقد ختمت بموتهما في أحضان الحب الزوجي الطاهر عام ٣٠ ق. م، بعد هزيمتهما في موقعة أكتيوم. ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية التي عثرنا عليها حتى الآن أن اسم كليوباترا قد قرن باسم أي رجل آخر غير اسمي قيصر وأنطونيو، وقد تزوجت بهما على التوالي كما وضحنا.

والواقع أنها قد عاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها.

والآن نسائل: كيف حدث أن سميت باسم المومس الملكية والخليعة الشرقية التي عاشت عيشة الفسق والفجور؟

مكانة كليوباترا في التاريخ

اعتاد الكتاب القدامى والمحدثون على السواء أن يصوروا لنا كليوباترا بصورة امرأة شرقية فاتنة نزاعة للشهوات، ذات سمرة جميلة تفوق النمر في قسوتها، وتختال في حلل ملكية مصرية ذات بهاء ونضرة. وكذلك مثلوها في صورة امرأة تحكمت فيها شهوتها البهيمية، لا تؤثر أحداً على نفسها، تتخطف الرجال وتودي بحياتهم بعد أن تقضي منهم وطرها. وقصوا علينا أنها لوثت شرف رجلين شريفين من أعلام

رجال روما وقادتهما للهلاك، وهما قيصر وأنطونيو.

والواقع أننا عندما ننخل البراهين التاريخية التي ادعاها أولئك الكتاب فإن هذه الصورة المزعجة التي مثلت لنا فيها كليوباترا لا تلبث أن تتضاءل وتتلاشى وتذهب جفاء، ولا يمكث لنا منها إلا صورة أخرى تختلف اختلافاً بيناً عن التي رسمها أولئك الكتاب ذوو الأهواء.

فأول افتراء على كليوباترا أنها كانت امرأة مصرية لحما ودماً. والواقع أنه لم تجر في عروقها نقطة واحدة من الدم المصري، بل هي من نسل أسرة شريفة من مقدونيا؛ فهي إذاً مقدونية المنبت، إغريقية الأصل.

وليس لدينا وصف مفصل عن منظرها، ولكن إذا قسناها بأترابها من بنات جنسها فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء، ويحتمل أنها كانت زرقاء العينين، ذهبية الشعر. ويستنبط من ملامح الرأس الموجود بالمتحف البريطاني- إذا كان حقيقة هو رأسها كما يقال- أنها كانت ذات شخصية تمتاز بالرقة والتهذيب، لا تنم عن جمال فاتن ولكنها وديعة خلابة. ويقص علينا بلوتارخ الذي استقى معلوماته عنها من طبيبها الخاص أولمبياس أن جمالها في ذاته لم يكن خارقاً للمألوف إلى حد أن يجتذب نظر من يشاهدها. وفي اعتقاده أن أوكتافيا زوج أنطونيو التي أصبحت فيما بعد منافسة لكليوباترا كانت أجمل المرأتين. والواقع أن هذا كان رأي كل من شاهدها؛ فقد قال عنها ديو كاسيوس؛ "لقد كان من أسباب المتعة والنعيم أن تراها أو تستمع إلى حديثها، فقد كان لها سحر تغزو به القلوب التي غالبت نفوذ كل حب بقوة ويأس شديد حتى تلك

القلوب التي أطفأت فيها الشيخوخة نار الحب وحولتها ثلجاً".

قلنا إنها قد حملت إلى قيصر ملفوفة في بساط على كتف مخلص من خلصائها. ولا شك أن ذلك يشعر بأنها كانت امرأة صغيرة الجسم رشيقته، وهذا ما ينم عنه رأسها الذي سبق أن أشرنا إليه إن كان ينسب إليها حقيقة.

ويقال إن موسيقى صوتها الخلاب كان أمضى أسلحتها فتكاً وإغراء. ويروي لنا بلوتارخ: "أن من نادمها كان يفتنه سحرها الذي لا يقاوم، وأن صورتها وحديثها يأخذان بمجامع القلوب، وأن شخصيتها الفذة كانت تنبعث في كل تصرفاتها، وكل تلك الميزات كانت تحدث في نفس جليسها حرارة لاذعة لا تنبعث من سواها". ويقول عنها ديوكاسيوس: "إن سحر حديثها كان يستعبد كل من استمع إليها".

أما عن مزاجها فالظاهر أنها كانت ميالة إلى المرح سريعة الاندفاع، مغرمة بالمجتمع البهج، هذا إلى ميلها إلى الفكاهة والمداعبة البريئة. غير أنها عندما يدعو داعي الجد تظهر مظهر الملك يكسوها جلاله وتحفها عظمته. وقد ذكر عنها كل من المؤرخين بليني وكسيوس أنها كانت مستخفة بالناس متكبرة، ولكن هذا رأي عدوين؛ إذ قد تفسر هذه الكبرياء من جانب كليوباترا بأنها عندما كانت في روما كان لزاماً عليها أن تحفظ كرامتها في بلد تحس من أهله العداء لها، فتظهر من الكبرياء ما يحفظ قيمتها وشخصيتها. والأمر الذي يسترعي النظر في حياة كليوباترا أنها قبل أن تتصل بقيصر الذي كان سبباً في عداوة الرومان لها لم تسمع

عنها كلمة سوء تمس شرفها رغم ما كان لها من أعداء ألداء في ميداني المجتمع والسياسة. وقد كان تعيش في الإسكندرية ذلك البلد الذي كان غوغاؤه مغرمين بهجاء الشخصيات البارزة فيه عندما كان يظهر في خلقهم أي مغمز للنقد والتجريح.

وأخيراً كانت كليوباترا تعد بالنسبة إلى عصرها امرأة نالت من الثقافة حظا وافراً. والواقع أن معظم أسلافها من البطالمة كان من هواة الفنون والمشجعين لها، وقد سارت كليوباترا على انهج أسلافها. هذا فضلا عن أنها قد وصلت بذكائها إلى حذق عدة لغات؛ لذا لم تكن في غالب الأحيان في حاجة إلى مترجم عند مخاطبتها الأجانب. يضاف إلى ذلك أنها كانت الوحيدة بين أفراد أسرتها التي تعلمت اللغة المصرية القديمة، كما كانت مولعة بالسياسة وفنون الحكم. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان حلم حياتها ومعقد آمالها أن يمتد سلطان بلدها الضيق وتصبح إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف.

والشائع عن كليوباترا أنها قد دبرت إيقاع يليوس قيصر العظيم في أحابيلها، وهو الذي يقول عنه أعداؤها إنه بطل شريف، وإنه لم يكن له حول ولا طول أمام سحرها الخبيث. بيد أننا إذا نظرنا في الأمر بالعين المجردة من العاطفة والتحيز وجدنا أن قيصراً هذا كان له في صباه سمعة تخدش الآذان إلى حد بعيد؛ فقد كان وهو أمرد يلقب في عاصمة ملكه بلقب ملكة روما. ولما اكتهل انقلب إلى زير نساء، وناهض الملك الضليل في اصطياد النساء وإغرائهن، حتى لقد كان جنوده أنفسهم يتغنون علانية بأغان خلقية شائنة عن فتوح قائدهم في مضمار الحب. ولا

نزاع في أن شهرته كانت معروفة تمام المعرفة لكليوباترا الفتية التي كان يحتمل جدا أنها كانت طوال شبابها بريئة طاهرة الذيل، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت لا تجهل الحياة وما تنطوي عليها من مغامرات قد تفلح وقد تخيب. ولهذا اعتمدت كليوباترا على صدق كل ما قيل عن قيصر، وجازفت لاجتذاب هذا الدكتاتور العظيم إلى جانبها ليكون لها معيناً ونصيراً للوصول إلى مآربها، فاستعملت الحيلة الجريئة التي ذكرناها لتصل إلى حجرته الخاصة. ولقد أفلحت كل تدابيرها؛ إذ نرى قيصر بعد مقابلتها قد انضم إلى جانبها، ومن ثم أصبحت كليوباترا في أعين الرومان حظية قيصر وحسب، ولكن في مصر التي كانت تجري فيها كل الحوادث كان الأمر على العكس من ذلك؛ لأنه منذ العهد الفرعوني كان من الجائز أن يتزوج رجل عظيم لا يجري في عروقه الدم الملكي بوريثة الملك المصرية، وبذلك يصبح ملكاً شرعيا على البلاد يرثه أولاده من بعده. وهذا نفس ما حدث مع قيصر وكليوباترا؛ فقد تزوجا، وأصبح ابنهما قيصرون الوريث لعرش رع الذي كان يعتبر أول ملك حكم مصر في العهود السحيقة. ولذلك كان يعد زواج كليوباترا من قيصر في عين الشعب المصري وفي عينها زواجاً شرعياً، وأن ابنهما قيصرون هو وارث عرش مصر بعدهما. ولكن الأمر في روما حيث تبعت كليوباترا قيصراً كان على نقيض ذلك، إذ كانت تعتبر حظية قيصر وأن ابنها ابن سفاح. وقد كان الشعب الروماني بما جبل عليه من كبرياء وغطرسة يحتقر كليوباترا لأنها شرقية مع أنها ليست شرقية المنبت كما أسلفنا.

ولما كان هذا الشعب يخشى أن يتخذها قيصر زوجته الشرعية لم

يأل جهداً في نشر كل رذيلة وفرية عنها بما يلطخ سمعتها، كما كانوا يقذفونها بكل ما يجرح شرفها ويدنس عرضها.

على أن الرومان أنفسهم في ذلك العهد كانوا أكثر الناس خلاعة وفسقاً ومجوناً وعصياناً؛ فكان نساؤهم ورجالهم يتورطون في مناكب الفجور وينغمسون في ضلال الفسق، تلك الأمور كانت تعتبر شعارهم السائد. ولهذا كان قواد الرومان من علية القوم في الواقع آخر من يشير بأصبع الاحتقار إلى كليوباترا. ومع كل هذه الضجة وهذا الصياح ضد هذه الملكة لم يكن هناك مثقال ذرة من الحق يبرهن أن كليوباترا خلال حياتها مع قيصر قد انحرفت عن الصراط السوي في معاملتها له، بل كانت مثال المرأة المخلصة لزوجها، الرءوم على طفلها. والمرجح أن قيصراً لو امتد به الأجل لتزوج من كليوباترا وفقاً للشريعة الرومانية، وذلك ليوطد بهذه الرابطة التي كان ينتظر من ورائها في المستقبل فرصة الاستفادة من زوجة مطيعة طموح، ومن مصر السلسة القياد ليثب على تكوين إمبراطورية شرقية تكون الهند آخر حدودها. ولا نزاع أن كليوباترا التي كانت تتقد في نفسها نار أطماع زوجها رأت من جانبها ما تخيلته من الإمبراطورية الموحدة الشاسعة الأرجاء تحت سلطان مصر وروما معاً، وأن تلك الإمبراطورية ستصير إرثاً عظيما لولدها المحبوب.

والواقع أنه حتى على أثر مأساة قيصر وفرار كليوباترا إلى مصر على عجل لم تجد ألسنة الهجاء كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة التي انقضت بين هربها ومقابلتها لأنطونيو. على أنه لابد من الاعتراف هنا أن كليوباترا قد دبرت نصب أحابيلها لصيد أنطونيو؛ ومع

كل ذلك فإن مقاصدها لم تكن مقاصد امرأة تقودها شهوتها؛ إذ كانت ترقب عن كثب سير الحروب الداخلية التي نشبت بين أنطونيو وأكتافيان، وبين بروتس وكاسيس. ولكنها على غير المنتظر لازمت خطة الحياد أثناء هذا الشجار الذي لم يكن لمصر فيه علاقة مباشرة، وكانت كليوباترا تعلم ما عليه روما من قوة وبطش، وتحس بالعواقب الوخيمة التي ربما أصابت بلادها إذا هي انحازت إلى جانب الفريق الذي تدور الدائرة عليه. هذا مع علمها أن الحرب قامت من أجل زوجها المقتول.

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب إليها أنطونيو أن تبرر أمامه موقفها الذي اتخذته حياله في هذه الحروب. ولما كانت هي تعلم وقتئذ أن مصر ضعيفة الشوكة لا تجرؤ على مقابلة العدوان بمثله لجأت إلى استعمال الحيلة لتخلص مصر من هذا المأزق الحرج، وبخاصة بعد أن عرفت الكثير من مزاج أنطونيو وطباعه، وما اشتهر به من معاقرته الخمر، وغرامه بالنساء، وحبه الغناء. هذا فضلا عن أنها كانت في الوقت نفسه قد حاكت في خيالها من جديد مشروع إمبراطورية شرقية تتحكم في العالم أجمع. ولا بد أن نلحظ من جهة أخرى أن روما كانت تنتظر الفرصة المواتية لوجود سبب أو وسيلة لإعلان الحرب على مصر للاستيلاء عليها وضمها لممتلكاتها، وبخاصة أن مصر كانت تعد في تلك الآونة مخزن غلال العالم، كما كانت كليوباترا لكل تلك العوامل تعد نجاحها في الاستيلاء على قلب أنطونيو خلاصاً لبلادها مما يضمره لها الغيب.

وكان أنطونيو رجلا يختلف اختلافاً بيناً عن قيصر في مشاربه

وأخلاقه؛ إذ كان ألين منه مغمزاً، ولكن ربما كان أكثر منه عاطفة في حبه. والظاهر أنه كان رغم اكتهاله طفلا في خلاقه. حقا أنه كان شجاعاً جسوراً موالياً لأصدقائه، سهل القياد إلى حد أنه كان معبوداً من شعبه وجنده على السواء، ولكن كان ينقصه مضاء عزيمة قيصر.

وحين وقفت كليوباترا على حقيقة أخلاقه دبرت أول مقابلة له في طرسوس الواقعة على آسيا الصغرى، فكانت موقعة فاصلة في تاريخ حياتها. وتمت المقابلة على ما رسمت ووقع أنطونيو في أسر غرامها. وتدل شواهد الأحوال أن كليوباترا من جانبها قد ولهت بحب هذا الرجل الروماني المشرق الطلعة؛ فكانت نتيجة تلك المقابلة انتصاراً عظيما لمآربها وهزيمة ساحقة لقلبها.

تبع أنطونيو كليوباترا في عودتها إلى مصر، وحدثت أحداث، لم تزوج منها على الشريعة المصرية؛ غير أن هذا الزواج لم تعترف به روما إذ كان له زوج شرعية بها، وهي أخت أكتافيان وقد بقى أنطونيو مع كليوباترا في مصر. ولا نزاع في أن حياة الزوجين في الإسكندرية كانت حياة ملؤها البهجة والسرور، وشعارها المآدب الفخمة والنزه المرحة. ومع هذه الحياة الطافحة بأنواع المسرات لم تسمع كلمة سوء فاه بها أحد تخدش سمعتها أو تثلم شرفها، ولم يقرن اسمها بشخص آخر. وفي الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رءوباً لأطفالها الأربع الذين أنجبتهم من أنطونيو. وفي الوقت الذي أعلن فيه رسميا قيصرون بن قيصر وريثاً لعرش مصر كان أطفالها الأربعة الآخرون قد نصب كل منهم ملكاً على إقليم من أملاك روما المترامية الأطراف. أما

كليوباترا نفسها فقد لقبت ملكة الملوك.

وعلى الرغم من ذكاء أنطونيو وحب الشعب له فإنه لم يكن بالرجل الذي في مقدوره أن يؤسس إمبراطورية تشمل العالم كله؛ إذ كان على ما يظهر كلما تقدمت به السن فقد من إقدامه وجرأته. وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رجلا مخموراً لا يفيق من سكره. وفي نهاية الأمر اتسع خرق العداوة بينه وبين روما، وبخاصة عندما طلق أخت أكتافيان مما أدى إلى حروب داخلية، ومن ثم أخذ نجم أنطونيو يأفل. ولا بد أن تكون كليوباترا قد أحست وقتئذ بالخطر الداهم، وشعرت أن الدائرة لا محالة ستدور عليها في نهاية الأمر، لاسيما أن أنطونيو قد أصبح مثله كمثل يراعة هشة لا يمكن الاعتماد عليه، ولو كانت كليوباترا حقيقة من طراز المرأة المراوغة الخداعة، كما وصفها أعداؤها، لنبذت أنطونيو وتركته فريسة أعدائه عندما أحست بأول إشارة تنذر بسوء المنقلب،ولنصبت حبائلها لتوقع فيها أوكتافيان الذي أخذ نجمه يتلألأ ويلمع. والواقع أننا نجدها وقتئذ تابعة مخلصة وفية لأنطونيو إلى أن لفظ النفس الأخير ثم إنها بعد ذلك أظهرت عليه الحزن والجزع بقلب كسير ملؤه الوفاء إلى أن لحقت به في مثواها الأخير بعد موته بفترة وجيزة.

ويعتبر المؤرخون اغتيالها نفسها، الذي كان على ما يرجح بنهشة ثعبان، نهاية مشرفة نالت الإعجاب التام حتى من أوكتافيان نفسه ألد أعدائها، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصية أوصت بها، فشيعها بكل مراسيم الملك إلى جوار زوجها الوفي أنطونيو.

ومما سبق نرى أنه حينما ندرس حقائق التاريخ. عن حياة هذه الملكة درساً محايداً فإنها تظهر أمامنا في صورة الزوج الطاهرة الذيل لكل من زوجيها على التوالي، وأنها كانت أمًّا حنوناً لأبنائها الخمسة. على أن القليل الذي كتب مدحاً فيها قد سطرته أقلام كتاب محايدين، أما ما كيل عليها من ذم وتجريح فقد خطه يراع أعدائها السياسيين المنافسين لها، ولاسيما أهل روما الذين كانوا يمقتونها كل المقت لما كان لها من نفوذ على أعاظم حكامهم، وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يخضع كبرياؤهم وتعصبهم حتى لتصور أنهم يحكمون بملكة شرقية.

ولم يبق أمامنا من التهم التي وصمت بها "كليوباترا" إلا تهمة القسوة والغلظة.

حقا أنها كانت ذات إقدام، ولكن أين البراهين التي يدلى بها على أنها كانت قاسية القلب غليظة الطبع؟

وأول تهمة شنعاء لصقت بها هي قتل أختها أرسنوي بتحريضها؛ ولكن أرسنوي هذه كانت أول من أعلن العصيان وشق عصا الطاعة على كليوباترا وقيصر. ولما أخمد هذا العصيان وقبض على أرسنوي، استعرضت في شوارع روما مكبلة بالسلاسل والأغلال في ركاب قيصر عندما دخل عاصمة الملك مظفراً. ولقد كان المتبع عند الرومان أن أمثال أرسنوي من الأسرى الملكيين ينفذ حكم القتل فيهم بعد احتفال عرض الفاتح المظفر، غير أنه قد عفي عن هذه الأميرة وصرح لها أن تعود وتلازم إحدى المعابد المصرية. ولكن لم تنقطع عن تدبير الثورات

والمكايد ضد الملك، فقتلت بأمر من أنطونيو وبتحريض من كليوباترا.

وكذلك اتهمت بأنها دست السم لأخيها الأصغر وشريكها الأسمى الذي كان يحمل لقب بطليموس الرابع عشر، وهو الذي رافقها في زيارتها المنكودة إلى روما، ويقال إنها دست السم له بعد عودتها من روما بقليل؛ غير أنه ليس لدينا شعاع من الحقيقة يثبت ذلك، بل المظنون أن هنا الصبي قد وافاه أجله دون اغتيال.

حقا أن كليوباترا قد أمرت بقتل بعض من أودعوا السجن لأنهم تآمروا على اغتيالها وأثاروا الفتن والقلاقل في ملكها. وإذا فرضنا أنها أمرت حقيقة بقتل أرسنوي التي كانت تسعى لاغتيالها وانتزاع ملكها، فإنها لم تكن أسوأ أخلاقاً من الملكة اليصابات الطيبة عاهلة انجلترا التي سجنت أختها ماري ثم قتلتها. ومع ذلك فإنها لم تتهم مطلقا بحب سفك الدماء لذاته بسبب هذا الحادث.

وكذلك سجل عليها التاريخ، كذباً كان أو صدقاً، أنها عندما كانت تبحث عن سم ناجع يقضي على حياتها دون آلام قد أجرت تجارب تلك السموم على مجرمين حكم عليهم بالقتل. والواقع أن هذه الطريقة لا تتفق مع المبادئ الخلقية الحديثة التي تفضل إجراء التجارب الطبية على الحيوان الضعيف الذي لم يجن إثماً ولم يقترف ذنباً، ولكن العصر الذي عاشت فيه كليوباترا كان ينظر إلى هذه الأشياء ينظر مختلف؛ إذ كان لابد للمجرم المحكوم عليه بالقتل أن يموت بحال من الأحوال. لهذا كانت طريقة هذا القتل في نظر عصرها ليست بذات بال، ولكنها كانت

على أعظم جانب من الأهمية لكليوباترا التي كانت تبحث عن طريقة تخلصها من الحياة التي أصبحت لا تحتمل بعد موت زوجها بطريقة لا تعاني بها آلاماً. هذا ولم يعز إليها ارتكاب جرائم قسوة غير ما ذكرنا إذا كان ذلك صحيحاً. على أنه من جهة أخرى كانت كليوباترا تعيش في عصر يتشدق فيه الجم الغفير من المتعلمين بعدم وجود آلهة، أما هي فكانت على جانب عظيم من التقى، تعتقد اعتقاداً راسخاً بتوحيد الألوهية والملكية؛ إذ يقال عنها إنها كانت في مناسبات عدة ترتدي ملابس الالاهة إزيس لتمثلها على الأرض؛ فكانت بذلك تمثل الحقوق الإلهية الموروثة، ولكنها لم تقتصد مطلقا أن تمثل القوة الإلهية؛ لأن الفراعنة القدامى كانوا يعتقدون دائماً أنهم يتقمصون صورة رع إله الشمس على الأرض، ولذلك ظهرت كليوباترا عندما مثلت هذا الدور المصري القديم في نظر شعبها أنها تمثل على مسرح أو تلعب دوراً خارقاً للمعتاد.

ويمكن أن نقرر هنا أنه من المحتمل جدا أن كليوباترا لم تكن ترتدي الملابس المصرية الحقيقية إلا في مثل هذه المناسبات؛ لأن اللباس الإغريقي كان الزي المتبع بين الطبقات العليا من المجتمع. وأخيراً يجب على المؤرخ عندما يفحص أخلاق أشخاص عاشوا في الماضي أن يزنهم بميزان العصر الذي عاشوا فيه، وأن يحكم عليهم بحسب المستوى الاجتماعي الذي عاشوا فيه لا بمستوى عصره. فإذا وضعنا كليوباترا في كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فإنها تظهر أمامنا المثل الأعلى في الطهر والعفاف، فلم تعد أن كانت زوجاً مخلصة وأمًّا

رءوماً، وإذا قسناها بغيرها ممن سبقوها، وهم أولئك الأشخاص الذين قست قلوبهم، وتحجرت ضمائرهم، وارتكبوا من الآثام ما يدمي القلوب دون أن يوجه إليهم لوم أو تجريح، فإنها تعد ملكا طاهراً بريئة من كل قسوة. على أننا لو حكمنا عليها بميزان عصرنا، وإن كان حكماً خاطئاً من الوجهة التاريخية ونجحنا من الوجهة الخلقية، فإنا سنجدها امرأة ألقي بها القدر وسط فتن عاصفة وأعاصير مهلكة، ولم تعد أن شقت طريق الخلاص لنفسها بحزم وضبط نفس واحتشام، وفي نهاية المطاف لاقت حتفها تحفها أبهة الملك وجلاله مما أرغمنا على الإعجاب بها كا أرغم ألد أعدائها أكتافيان الروماني على إجلالها حتى نفذ آخر وصية أوصت بها.

هذه هي كليوباترا ملكة الملوك في كفة الميزان كما حدثنا التاريخ المنصف لا كما تحدث عنها أعداؤها الذين خبثوا ووضعوا، فكان حكمهم زيفاً وضلالا. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ".

ملكة الأزهار في حياة كليوباترا

لاتزال الأزهار – كما كانت من قديم الزمان – رمزا للربيع، ولازال الوردة ملكة الازهار، كما كانت حين أعجبت بها كليوباترا الملكة الفاتنة، وجعلتها زهرتها المفضلة.

لم تكن زهرة الورد معروفة عند قدماء المصريين، إذ لم يوجد لها أي أثر في معابدهم ومدافنهم، رغم كثرة ما وجد فيها من رسوم الأزهار.

وقد ظهرت الوردة في تاريخ مصر للمرة الأولى، على عهد البطالسة اليونانيين، ويغلب على الظن أنهم جاءوا بها إلى مصر من اليونان. فقد ذكر بعض المؤرخين أن « تاييس » الحسناء اليونانية التي أصبحت زوجة بطليموس الأول، حملت معها إلى الإسكندرية أول وردة عرفتها مصر، وأنها أمرت بزرع الورود في حدائق قصرها، فنمت وكثرت وأصبحت أزهارها تعد من أجمل الورود في ذلك العصر وفي سنة ١٩٠٢، كشف العالم الفرنسي « جاييه » في مصر قبر

« تائيس المسيحية » التي عاشت في القرن الثالث بعد الميلاد في الإسكندرية وصحراء الفيوم – وهي غير تائيس زوجة بطليموس – فوجد في القبر باقة من الورود، محفوظة بحالة جيدة

ويقول المؤرخ « تيو فراست » الذي مات في سنة ٢٨٧ قبل الميلاد : « أن الورود في مصر تنمو بسرعة، وأزهارها تتفتح قبل أن

تتفتح ورود أوربا بنحو شهرين »

ويقول المؤرخ « بلين » :« أن الرومانيين كانوا ينقلون الورود من مصر إلى روما في فصل الشتاء ». كما يقول المؤرخ « مارسيال »: « أن المصريين كانوا يهدون كميات كبيرة من أزهار الورد إلى الإمبراطور « دوميسيانوس » يوم الاحتفال بعيده ، وقد عاش هذا الإمبراطور الروماني في أواخر القرن الأول للميلاد.

وعندما ارتفع في سماء مصر نجم الملكة الفاتنة كليوباترا، ارتفع معها نجم الوردة زهرتها المفضلة، فغزت مصر بأسرها، وملأت الحدائق، وزينت بها القصور، وأصبحت أحب الأزهار إلى سكان مصر أجمعين، لا تخلو منها حفلاتهم في مختلف المناسبات، في الأفراح والأحزان!

وحينما جاء إلى الإسكندرية لأول مرة « ماركوس أنطونيوس » بوصفه ضابطا صغيرا تحت أمرة يوليوس قيصر، أهديت إليه باقة من الورد وهو نازل من سفينته.

وكان يصطحب معه والد كليوباترا، الذي أمر يوليوس قيصر بإعادته إلى عرش مصر، بعد أن نفته منها ابنته برنيس. وكانت كليوباترا في الرابعة عشرة من عمرها حين قابلت أنطونيوس لأول مرة، وكانت تضع على رأسها عصابة تعلوها الحية الذهبية، شعار الملك، وفوق العصابة باقة من الورود الحمراء. وما كانت تدري يومئذ أي دور خطير في تاريخها سوف يمثله ذلك الضابط الصغير، وهذان الرمزان اللذان ازدان بهما تاجها، فقد أصبح الضابط عشيقها، ولم تخل من الورود حفلة من حفلاتها، أو

ذلك أن تموت بلسعة حية، على سرير نثرت عليه الورود!

لم يلبث أبو كليوباترا قليلا بعد عودته من المنفى، حتى مات، وتمكنت كليوباترا بمساعدة قيصر من القبض على صولجان الملك، واحتفلت بتتويج نفسها جالسة على سرير نثرت عليه الورود.

وقد أحبها يوليوس قيصر وأعجب بذكائها المفرط وسعة اطلاعها، فكان يجالسها ويتحدث إليها في الفلسفة والدين والاجتماع والشؤون العسكرية، وكان هو يومئذ في الخامسة والخمسين من عمره، أما هي فكانت في العشرين وفي نهاية كل جلسة، وبعد كل مأدبة، كانت تضع على رأسها إكليلا من الورد الأحمر، وترقص لعشيقها رقصة افروديت، على بساط من أوراق الورد.

أما حمام كليوباترا، في قصرها بالإسكندرية، فكان يملأ كل يوم مرتين ماء الورد، وهو الماء الذي لم تكن كليوباترا تغتسل بغيره. وبعد الخروج من الحمام، كانت الملكة الحسناء الساحرة تستلقي على فراش من أوراق الورد أيضا. وهكذا كانت رائحة الورد تفوح منها دائما، في كل ساعة من ساعات النهار والليل وكان يوليوس قيصر يقول : « أن جسم الملكة معجون بالورد! »

وبقي قيصر في مصر حينا من الدهر، أوشك خلاله أن ينسى وطنه، ثم عاد أخيرا إلى روما حين بلغته أخبار الفتن التي نشبت في بعض أنحاء الإمبراطورية الواسعة، وترك حبيبته في قصرها بالإسكندرية، تعنى بأمر طفلهما قيصرون، الذي ولد في مهد من ورق الورد الأحمر!

ولم يطق يوليوس قيصر صبرا على فراق الملكة المصرية الحسناء فأرسل يدعوها إلى موافاته في روما عاصمة إمبراطوريته، فلبت دعوته، وسارعت إليه حاملة معها هدية من الورد المصري الجميل وكان هو قد حرص من جانبه على تزويد القصر الذي أعده لها في روما مئات من أشجار الورد، جمعها من مختلف أنحاء ايطاليا. وهكذا عاشت كليوباترا في روما بين الورود، كما كانت تعيش في الإسكندرية بين الورود!

وفي ذلك القصر الروماني كان عظماء الدولة وعلماؤها يعقدون مجالسهم، فتتصدرها ملكة مصر الشابة، وتناقش كلا منهم في الشأن الذي يعنيه، وعلى رأسها. إكليل من الورد.

وفي ذات ليلة، وضع يوليوس قيصر على رأس كليوباترا إكليلا من الورد، وقال لها: «سوف أضع على راسك التاج الروماني! »

وهم بأن يتزوجها، وأن يجعل من ابنهما قيصرون وارثا شرعيا لعرشه الإمبراطوري. ولكن خصومه تآمروا عليه، واغتالوه في مجلس الشيوخ قبل أن ينفذ ما أراد. وخشيت كليوباترا على حياتها وعلى حياة ابنها، فهربت من روما وعادت إلى مصر، وأعانها على ذلك ماركوس انطونيوس.

وحملت معها ورودا رومانية إلى الإسكندرية، كما حملت من قبل ورودا مصرية إلى روما

وفي الإسكندرية، شيدت كليوباترا معبدا باسم قيصر – وكانت تعدد زوجا شرعيا لها وأحاطت المعبد بحديقة لم تغرس فيها غير الورود، ونصبت عند مدخل المعبد تمثالين : أحدهما يمثلها في صورة ايزيس،

والآخر يمثل يوليوس قيصر في صورة أوزوريس، وبين التمثالين وردة من المرمر الأحمر!

وكان ماركوس أنطونيوس ثالث ثلاثة تولوا الحكم بعد مصرع قيصر، فزحف بجيشه على بلاد اليونان، – وكان يدخل المدن التي يفتحها ووراءه رهط من الكائنات على رؤوسهن أكاليل من الورد، تكريا : للمرأة التي أحبها في روما، والتي ا اعتزم السعي إليها في الإسكندرية!

وأرسل أنطونيوس رسولا يحمل تحيته إلى كليوباترا، فردت التحية بأحسن منها، وعززتها بإهداء أنطونيوس باقة من ورود الإسكندرية. وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها حين استقلت سفينتها الملكية من الإسكندرية قاصدة إلى سوريا للقاء انطونيوس القائد المنتصر في مدينة طرسوس ولم تنس أن تفرش سفينتها وتزينها بالورود؟

وأخضع جمال الملكة قوة القائد الغالب، فانقاد لها انقياد الأسير الاسره. وتبعها بعد أن عادت إلى مصر فاستقبلته في الإسكندرية استقبال الفاتح المنتصر، والحبيب العائد، وسارت معه في موكب رائع كانت الورود فيه تلا المركبات وتغطى الطرق وتكلل الرؤوس!

وقال لها حين قدمت له وردة حمراء كبيرة الحجم، قطفتها بيدها من حدائق القصر : سنطلق على هذا النوع من الورد اسم وردة كليوباترا!. وأرسل أشجارا منها إلى روما لتزرع في حدائقها!

عاشت كليوباترا مع أنطونيوس عشرة أعوام في الإسكندرية ، أنجبا خلالها ولدين. وبقيت الوردة طول هذه السنين زهرتها المفضلة كما

كانت كذلك في المراحل السابقة من حياتها.

ثم اتسع الخلاف بين أنطونيوس وخصمه أوكتافيوس، فنشب القتال بين الرجلين. وأسرعت الملكة إلى نجدة حبيبها في معركة اكتيوم البحرية، ولكنها تخلت عنه أثناء المعركة، وكانت سفينتها تحتوي على كمية من « ورود كليوباترا!» فألقت بها في البحر. حيث حملتها الأمواج المتلاطمة إلى سفن انطونيو، فأدرك أن حليفته وحبيبته قد تخلت عنه وتسللت بسفنها من غمرة القتال، فهالته خيانتها إياه في ذلك الظرف العصيبا. ثم انتهى الأمر بهزيته في البحر، ثم البر، ودخل الإسكندرية عدوه أوكتافيوس على رأس جيشه المنتصر؟

وقررت كليوباترا أن تتخلص من الحبيب المهزوم، ونحاول اكتساب ود القائد المحظوظ ولكن حبلتها فشلت، فأوكتافيوس رجل غليظ الكبد قاسي الفؤاد، لم تؤثر فيه نظرات الملكة الساحرة، ولم يسكره عطر الورد الفائح منها.

وانتحر انطونيوس حين بلغ كذبا أن كليوباترا قد ماتت، وكانت منافذ النجاة قد سدت في وجهها، فعمدت إلى الانتحار، واستلقت على سرير نشرت عليه الورود، وقدمت ذراعها البض لإحدى الحيات كي تنفث في دمها سمها القاتل.

الفهرس